العادات الدينية المخالفة والحادثة في المجتمع المكي والحرم من العهد الفاطمي إلى العصر المملوكي

د. بندر بن محمد بن رشيد الهمزاني
كلية الشريعة، جامعة أم القرى
المملكة العربية السعودية

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، ورضي الله عن آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

لم يقتصر مؤرخو المسلمين على تسجيل الأحداث التاريخية مجردةً عن الواقع الاجتماعي أو العلمي أو الديني المحيط بها، والعادات والتقاليد المنتشرة بين أهل الزمان، بغض النظر عن جواز هذه العادات وموافقتها للإسلام من عدمه، فهذا مناط بحث الفقيه، وبغض النظر عن ثبوت الدليل والإسناد بهذه العادات عن صاحب الشريعة من عدمه، فهذا مناط عمل المُحَدِّث.

ولاشك أن عناية المؤرخين ببيان هذا الجانب قد حفظ لنا صورة البلاد وطريقة معيشتها التي كانت عليها في هذه الأزمنة القديمة، وصار ممكنًا لنا أن نتعرّف على هذه الصورة عن كثب، من خلال المثابرة في جمع شتات ما ذكره المؤرخون أثناء كلامهم، ومنثور أقوالهم في كتبهم هنا وهناك.

وقد آثرتُ أن يكون بحثي هذا حول العادات الدينية المخالفة في المجتمع والحرم المكيَّين، بداية من العهد الفاطمي وبدء إعلان الدولة الفاطمية في إفريقيا[1] (٢٩٧هـ) إلى العهد المملوكي (٦٤٨هـ) ، وهي فترة طويلة في عُمر الأمة، تتناول العهد الفاطمي كله، وما تلاه من ظهور السلاجقة ثم الأيوبيين، إلى بداية العهد المملوكي (٦٤٨هـ) وقد جعلتُه خاصًّا بالعادات الدينية لأمور؛ منها:

١- اختصاصه بالمجتمع المكي والحرم، ومكانتهما الدينية لدى المسلمين.

٢-حرص جميع الدول الفاطمية وغيرها على السيطرة على الحرمين، ومن ثَمَّ السيطرة على العالم الإسلامي روحيًا ودينيًا، ثم سياسيًا.

---

[1] انظر: أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، ضمن سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ٩٣ - ١٢١.

٣- وأخيرًا اشتهار العصر الفاطمي خاصة بلبس عباءة الدين من جهة، واشتهاره بإحداث بالبدع والعادات المخالفة للدين من جهة أخرى.

وقد قال ابن تغري بردي في كلامه عن ركوب الخلفاء الفاطميين في أول العام من كل سنة، وما في ذلك من أحداث: «والمعزّ هذا هو الذي استَنَّ ذلك كله»[٢]. فلّما استنَّ الفاطميون بدعهم؛ عَملوا على نشرها في سائر بقاع المسلمين، وعلى رأسها مكة، قلب العالم الإسلامي، الذي يتوجّه إليه المسلمون للحج كل عام، ومن ثَمَّ يعود الحجاج إلى بلادهم يحملون ما رأوه في مكة من أفكار، وما شاهدوه من أفعال، فتنتشر البدع الفاطمية، وتسري في الأمة سريان النار في الهشيم، والله المستعان.

ومما يُذكر مع بداية العهد الفاطمي وقيام دولتهم الفاطمية سنة (٢٩٧) ما قاله النجم ابن فهد في أحداث هذه السنة المذكورة: «فيها غرقت أركان البيت الحرام الأربعة، وفاضت بئر زمزم، وذلك لم يُعهد فيما سلف من الزمان»[٣]. فكأن الأرض كانت تعلم بما هو آتٍ، وكأنّ الحرم كان يعترض عمليًّا على ما يجري في عالمنا الإسلامي.

وقد قسمت هذا البحث إلى تمهيد ومبحثين:

مقدمة: فيها سبب اختيار الموضوع.

تمهيد: في الحالة الاجتماعية والدينية في مكة في الفترة التي تناولها البحث.

المبحث الأول: في العادات الدينية المخالفة في المجتمع المكي عامة، من العهد الفاطمي إلى العهد المملوكي.

المبحث الثاني: في العادات الدينية المخالفة في الحرم المكي، في الفترة نفسها.

وختمته بنتائج وتوصيات.

---

[٢] أبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، الظاهري الحنفي النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ص ٧٩.

[٣] النجم عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، بمكة المكرمة، ط (٣)، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (٣٦١/٢).

تمهيد

في بيان الحالة الاجتماعية والدينية في مكة من العهد الفاطمي إلى العصر المملوكي

كانت مكة ولا تزال قلب العالم الإسلامي النابض، وقبلة المسلمين على مدار الأيام، في صلواتهم وحجهم وعمرتهم، وقد حرصت سائر الدول والممالك في عموم العالم الإسلامي على بسط هيمنتها بشكل أو بآخر على مكة، سواء أكانت هيمنة مباشرة عن طريق الحكم، أو هيمنة غير مباشرة عن طريق الدين والتظاهر بخدمة الحرمين، وغيرها من المسائل الدينية والفكرية.

وبناءً عليه لم تكن مكة في يوم من الأيام بعيدة عن الصراعات الدائرة في العالم الإسلامي، وسيتضح لنا هذا من خلال التدافع المستمر بين الدولة العباسية والفاطمية وغيرهما على الدعاء للخليفة في الحرم الشريف، وسيأتي معنا الكلام على هذه التقلبات والتدافعات المستمرة، أثناء الكلام على الدعاء للخلفاء والوزراء في الخطبة.

وسيأتي أيضًا حجم التقلبات في الأذان ما بين زيادة حي على خير العمل وحذفها، بناءً على الصلة بين الدولة الفاطمية وحاكم مكة.

بل تجاوز الأمر إلى ما هو أبعد من التدافع بين دولة فاطمية عبيدية ناشئة في مصر تريد بسط سيطرتها، وخلافة عباسية قائمة في بغداد، قبل أن يدخل السلاجقة، ثم الأيوبيون على خط التدافع، لتنتهي الدولة الفاطمية أخيرًا ويبزغ فجرٌ جديد في عالمنا.

قلت: تجاوز الأمر ما هو أبعد من تأثير هذا التدافع بين تلك الدول والممالك على مكة، إلى تأثير التدافع داخل الدولة الواحدة على مكة، إنفاقًا وغيره.

وبإمكاننا أن نسلط الضوء على واقعتين، تدلان على ما بعدهما.

الأولى: فيما يخص المقتدر وإنفاقه على الحرمين.

فقد ذكر ابن الجوزي «اجتماع جماعة القُوَّاد والكُتَّاب والقضاة على خلع المقتدر بالله، وتناظرهم فيمن يجعل مكانه، فاجتمع رأيهم على عبد الله بن المعتز، فأجابهم إلى ذلك على أن لا يكون في ذلك سفك دم، فأخبروه أن الأمر يسلم إليه عفوًا، وأن جميع من وراءهم من القواد والجند قد رضوا به، فبايعهم على ذلك، فأصبحوا وقد خلعوا المقتدر بالله، وبايعوا ابن المعتز».

لكن لم يتم ذلك لابن المعتز، وقبض المقتدر على أصحابه الذين بايعوه، وقتل أكثرهم، وقُبِض على ابن المعتز نفسه، قبل أن يُقتل هو الآخر ويظهر موته ويُسَلَّم لأهله ليدفنوه[٤].

---

[٤] انظر تفاصيل هذه الأحداث جميعًا في: ابن الجوزي، المنتظم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عطا،

ومثل هذه الواقعة، وهذا الخلع للمقتدر من جماعة من قادته وقضاته وكُتَّابه؛ كان كفيلًا بأنْ يدفعه لأنْ يتوجَّه بشيء من الإصلاحات، وكثيرٍ من البذخ والإنفاق، خاصة في حرم الله عز وجل، الذي يأوي إليه الناس في الحج، ليسمع الناس ذلك ويشاهدوه بأعينهم، فيحمدون ذلك للمقتدر، ويُمكِّن له في الحكم أكثر مما كان قبل هذه الفتنة، وأحسبه قد سار في هذا الطريق.

ففي سنة خمس وتسعين ومئتين، أيام الخليفة المقتدر بالله، رتَّب علي بن عيسى ابن الجراح وزير المقتدر «من يحمل إلى الحرمين الشريفين وإلى المجاورين بهما وإلى أرباب الوظائف بمكة والمدينة في كل سنة ثلاث مئة ألف دينار»[٥].

وذكر ابن الجوزي في سنة ٣٠٣ «أنّ المقتدر بالله وقف كثيرًا من المستغلات السلطانية على الحرمين، وأحضر القضاة والعدول وأشهدهم على نفسه بذلك»[٦].

وقيل: «كان المقتدر يصرف في كل سنة في طريق مكة والحرمين ثلاثمائة ألف دينار ونيفا وخمس عشرة ألف دينار»[٧].

بل أضحى هذا الإنفاق سمةً للمقتدر في الحرم وغيره، وقد أنفق في جمادى الأولى سنة ٣٠٢، في ختان خمسة من أولاده ستمائة ألف دينار، ويقال: نثر عليهم خمسة آلاف دينار عينًا، ومائة ألف درهم ورقًا[٨].

وفي ظل هذه الحالة من التدافع المستمر داخل الدولة الواحدة من جهة، وبين الدول السابقة من جهة أخرى، فقد تذبذب الوضع في مكة، وتقلب على جهات شتى ما بين الدعاء لخليفة ظالم أو آخر عادل، والأذان الفاطمي وتركه، بل وصل الأمر كما سيأتي إلى أمن الحجاج في مسيرهم وإقامتهم وطعامهم، وأصبح ذلك كله مرهونًا بالصلة بين هذه الدول أو بعضها وبين حاكم مكة، كما ستأتي الإشارة إليه أيضًا، خاصة عندما يأتي ذِكْر صلاح الدين وما فعله من إلغاء المكوس الظالمة التي ضُرِبت على الحجاج لفترة من الزمن.

ومن خلال هذه الإشارات السابقة يظهر مدى تأثُّر الوضع الاجتماعي والديني بل والاقتصادي والأمني في مكة، بالواقع المحيط بها، والتدافع الإقليمي بين عدد من الممالك والدول، خاصة الخلافة العباسية، والدولة العبيدية الفاطمية.

والقضية الثانية: في كسوة الكعبة.

دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، (٧٩/١٣ - ٨٩).

[٥] ابن فهد، إتحاف الورى ، (٣٦٥/٢).

[٦] ابن الجوزي، المنتظم، (١٥٤/١٣).

[٧] ابن فهد، إتحاف الورى، (٣٦٦/٢).

[٨] ابن الجوزي، المنتظم، (١٥٠/١٣).

حيث تقف قضية كسوة الكعبة شاهدًا آخر على ما نقول من بلوغ التأثير الإقليمي بتدافعاته إلى مكة، رغم بعدها الجغرافي عن أماكن التدافع؛ لكنها قلب العالم الإسلامي النابض، والمتأثّر بكل ما يدور.

ونظرًا لمكانتها ومكانة البيت الحرام؛ فقد تعاقب الناس على كسوة الكعبة المشرفة بأجمل الكسوة[٩]، وكان كل ملك أو أمير يكسوها كسوة فوق التي عليها، حتى جاءت سنة ١٦٠ وفيها نزع المهدي كسوة الكعبة التي كانت عليها، وكساها كسوة جديدة، وذلك أنّ حَجَبَة الكعبة رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجرده، ثم طُيِّ البيت كله بالخلوق، وذكر أنهم لما بلَّغوا إلى كسوة هشام وجدوها ديباجًا ثخينًا جيدًا، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن [١٠].

واستمر الأمر على كسوة الكعبة كسوة جديدة في كل مرة[١١].

ففي سنة ٣٨١هـ جلَّ قَدْر أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الحسني، وكتب إليه القادر بن إسحاق بن المقتدر – وقد بويع له بد الطائع في هذه السنة على يد بهاء الدولة ابن شرف الدولة ابن عضد الدولة –وَرَغَّبهُ في الطاعة، ووعده باتصال الإمارة في بيته؛ فأنفذ كتبه إلى العزيز، فأرسل له بمال وخِلَع، فقسمها في قومه، وكسا الكعبة بالخِلْعة البيضاء[١٢].

وفي سنة ٤٢٣هـ وردَ من مصر كسوةٌ الكعبة وأموال للصدقة وصلاتٌ لأمير مكة[١٣].

وفي سادس ذي الحجة سنة ٤٦٥هـ «دخل علي بن محمد بن علي الصُّلَيْحِيُّ صاحب اليمن مكةَ وملكها، وفعلَ فيها أفعالًا حسنةً، واستعمل الجميل مع أهلها، وأظهر العدل

---

[٩] أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، الشهير بالماوردي، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة، د.ت.، ص (٢٤٦)؛ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، المحقق: مرزوق علي إبراهيم، دار الراية، ط (١)، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، (٣٦٠/١).

[١٠] محمد بن حبيب، المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.، ص ٣٦؛ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، التاريخ، دار التراث، بيروت، ط (٢)، ١٣٨٧هـ، (١٣٣/٨)؛ ابن الجوزي، المنتظم، (٢٣٨/٨)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (٢٢٠/٥).

[١١] ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (١)، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، (٤٧٢/٥)؛ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٩هـ، (٢٠/٢).

[١٢] ابن فهد، إتحاف الورى، (٤٢١/٢).

[١٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، (٣٤٨/٩)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، (٢٧٦/٤).

والإحسان، ومنع المفسدين، وطابت به قلوب الناس، وأمن الحاج أمنًا لم يُعهد مثله؛ لإقامته السياسة والهيبة، حتى كانوا يعتمرون ليلًا ونهارًا، وأموالهم محفوظة ورحالهم محروسة، وتقدَّم بجلب الأقوات، فرخصت الإسعار، ورفع جورَ من تقدَّم، وظهرت منه أفعال جميلة، وانتشرت له الألسنة بالشكر، وكثرت له الأدعية، وكان متواضعًا؛ إذا جاز على جَمْعٍ سلَّم عليه بيده، وكسا البيت ثيابًا بيضًا حريرًا صيفًا»[١٤].

وفي سنة ٤٦٦هـ قدم مكة الرئيس الأجل السيد فخر الرؤساء أبو النصر إبراهيم بن محمد بن علي الإستراباذي، وصنع بمكة وظاهرها مآثر حسنة، منها أنه عَمَّر المسجد الذي أحرمت منه عائشة رضي الله عنها بالتنعيم لما حجّت، ووجد البيت عريانًا منذ سنين فكساه ثيابًا بيضًا من عمل الهند كانت معه لذلك. وفي هذه السنة كسيت الكعبة من الديباج الأصفر، عملها صاحب الهند محمود بن سبكتكين، ثم ظفر بها نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي، فأرسل بها إلى مكة، وجُعِلت فوق الكسوة التي كساها لها أبو النصر الإستراباذي[١٥].

المبحث الأول

في العادات الدينية المخالفة في المجتمع المكي عامة، من العهد الفاطمي إلى العهد المملوكي

ويشتمل على ثمانية مطالب:

المطلب الأول: تتبُّع آثار النبي ﷺ وآثار صحابته رضي الله عنهم وبناء القباب على تلك الآثار.

المطلب الثاني: الاحتفال باستهلال الأهلة أول كل شهر واحتفالات رجب خاصة وغسل البيت بعد هذه الاحتفالات.

المطلب الثالث: الاحتفال بليلة النصف من شعبان وفيضان ماء زمزم وما يكون في ذلك من أكاذيب واعتقادات باطلة.

المطلب الرابع: احتفالات شهر رمضان والتراويح وعيد الفطر.

المطلب الخامس: الوصية بالدفن في بعض ستائر الكعبة أو صنع التوابيت من أبوابها.

المطلب السادس: التوسُّل المبتدع.

المطلب السابع: فرض المكوس على الحجاج.

المطلب الثامن: سبُّ الصحابة رضي الله عنهم.

---

[١٤] ابن فهد، إتحاف الورى، (٤٦٨/٢).

[١٥] المصدر السابق، (٤٧٥/٢، ٤٧٦).

المطلب الأول

تتبُّع آثار النبي ﷺ وآثار صحابته رضي الله عنهم

وبناء القباب على تلك الآثار

ذكر المؤرِّخون وأصحاب الرحلات لمكة المكرمة من ذلك نصيبًا مشهودًا؛ فقد اتسعت فيها دائرة تتبُّع الآثار الخاصة بالنبي ﷺ، وبصحابته الكرام رضي الله عنهم، وبناء القباب عليها، بحيث صارت مزارًا للحاجّ القادمين من سائر بقاع المسلمين، مما لفت نظر ابن جبير في حجَّته، ودعاه لزيارتها ورصد ما عاينه من هذه المشاهد والمزارات بقوله: «فمن مشاهدها التي عانيناها: قبة الوحي، وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها، وبها كان ابتناء النبي ﷺ بها، وقبة صغيرة أيضا في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفيها أيضًا وَلَدَتْ[١٦] سيِّدَيْ شباب أهل الجنة: الحسن والحسين رضي الله عنهما[١٧].

وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونةقد بُنيت بناء يليق بمثلها.

ومن مشاهدها الكريمة: أيضًا مولد النبي ﷺ، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهرهُنِّي عليهمسجد لم يُرَ أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزّل به.

والموضع المقدس الذي سقط فيه ﷺ ساعة الولادة السعيدة المباركة – التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين – محفوفٌ بالفضة، فيالها تربة شرّفها الله بأنْ جعلها مسقط أطهر الأجسام، ومولد خير الأنام صلى الله عليه وعلى إله وأصحابه الكرام وسلم تسليمًا.

يُفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبرّكين به في شهر ربيع الأول، ويوم الاثنين منه؛ لأنه كان شهر مولد النبي ﷺ، وفي اليوم المذكور ولد ﷺ.

وتفُتح المواضع المقدسة المذكورة كلها، وهو يوم مشهور بمكة دائمًا.

ومن مشاهدها الكريمة أيضًا: دار الخيزران[١٨]، وهي الدار التي كان النبي ﷺ يعبد الله فيها سرًّا مع الطائفة الكريمة المُبَادِرة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم، حتى نشر الله

---

[١٦] يعني: أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

[١٧] وقد بقيت هذه المشاهد والمزارات حتى رآها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، المتوفى سنة ٧٧٩، وسجلها في رحلته المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ، (٣٧٩/١).

[١٨] انظر: أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ، (١٩٣/٢، ٢٥٧)؛ ابن الجوزي، المنتظم، (٣٨٠/٢)؛ أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، (٨٤/٢).

الإسلام منها على يدي الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وكفى بهذه الفضيلة»[١٩].

وبعد أن أتم ابن جبير تسجيل معاياناته عن المشاهد الخاصة بالنبي ﷺ، بدأ في بيان المعاينات الخاصة بالصحابة الكرام رضي الله عنه، فقال: «ومن مشاهدها أيضًا: دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهي اليوم دارسة الأثر، ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرّك الناس بلمسه، يقال: إنّ النبي ﷺ كان يسلم على النبي ﷺ متى اجتاز عليه. وذُكِر أنه جاء يومًا ﷺ إلى دار أبي بكر رضي الله عنه، فنادى به، ولم يكن حاضرًا؛ فأنطَقَ الله عز وجل الحجَر المذكور وقال: يا رسول الله ليس بحاضر. وكانت إحدى آياته المعجزات ﷺ[٢٠].

ومن مشاهدها: قبةٌ بين الصفا والمروة تُنسب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفي وسطها بئرٌ يقال: إنّه كان يجلس فيها للحُكم رضى الله عنه. والصحيح في هذه القبة أنها قبة حفيده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبإزاء داره المنسوبة إليه، وفيها كان يجلس للحكم أيام تولّيه مكة. كذلك حكى لنا أحد أشياخنا الموثوقين. ويقال: إنّ البئر كانت في القديم فيها، ولا بئر فيها الآن لأنّا دخلناها فألفيناها مسطحة وهي حفيلة الصنعة.

وكانت بمقربة من الدار التي نزلنا فيها دارُ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ذي الجناحين.

وبجهة المسفل – وهو آخر البلد – مسجدٌ منسوب لأبي بكر الصديق رضى الله عنه، يحفّ به بستانٌ حسن فيه النخيل والرمان وشجر العناب، وعايِنًا فيه شجر الحنّاء. وأمام المسجد بيت صغير فيه محرابٌ؛ يقال: إنّه كان مختبأ له رضي الله عنه من المشركين الطالبين له.

وعلى مقربة من دار خديجة رضى الله عنها المذكورة – وفي الزقاق الذي الدار المكرمة فيه – مصطبة فيها متكأ يقصد الناس إليها، يوُصلّون فيها ويتمسّحون بأركانها؛ لأن في

---

[١٩] وقد دخل ابن جبير هذه المشاهد وحكى تفاصيلها. انظر: أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص ١٤١– ١٤٥.

[٢٠] وقد بقي هذا المشهد حتى رآه ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ) وسجله في رحلته، (٣٨٠/١).

وكان الخلفاء والأمراء يتناوبون على تعمير هذه المشاهد والمزارات، ثم تحولت هذه الدور بحمد الله في وقت لاحق إلى مساجد. ينظر: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، لأبي البقاء، بهاء الدين محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، المعروف بابن الضياء، المحقق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (٢)، ١٤٢٤هـ– ٢٠٠٤م، ص ١٨٧؛ أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، المكي الحسني الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (٣٦٠/١، مقدمة التحقيق)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م؛ عمر بن فهد الهاشمي المكي، الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة، مكة المكرمة، ط (١)، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ص ٦٤٤.

موضعها كان موضع قعود النبي ﷺ»[٢١].

ولم تقف المسألة آنذاك عند تتبع آثار النبي ﷺ، وآثار صحابته الكرام رضي الله عنهم، وبناء القباب عليها، أو التمسح والتبرُّك بها، وإنما صاحب ذلك أيضًا انتشار الخرافات والإشاعات، مثل الذهاب للغار الذي في جبل أبي ثور، الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ، ومحاولة دخول هذا الغار مع ما في ذلك من المشقة والعناء، فمن أدخل رأسه وعالج إدخال سائر جسده فأفلح، ومن اجتهد وحاول الدخول ولم يستطع دخوله لسبب أو لآخر منعه من ولوجه؛ كساه الظنّ الفاضح المخجل في كونه ابن زنا عياذًا بالله، مع ما يعانيه من مشقة الضيق وإشرافه على المنيَّة توجُّعًا وانقطاعَ نَفَسٍ وألمٍ، ولهذه الأسباب كان عقلاء الناس يجتنبون صعود هذا الجبل ومحاولة دخول هذا الغار، وكان البعض من الناس يقولون في مَثَلٍ: ليس يصعد جبل أبي ثورٍ إلا ثور[٢٢].

وذكر ابن جبير صورةً أخرى من صور التبرُّك، تختلف عما سبق هنا، لكنها بمجملها تشرح ما كان عليه أهلُ مكة آنذاك من حالة دينية.

وقد قال ابن جبير: «ومما يجب أن يُثبت ويُؤثَر لبركة معاينته وفضل مشاهدته: أنّ في يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى وهو التاسع من شِتْنَبر، أنشأ الله بحرية[٢٣]، فتشاءمتْ فانهلّتْ عينًا غديقة؛ كما قال رسول الله ﷺ، وذلك إثر صلاة العصر ومع العشي من اليوم المذكور، فجاءت بمطر جَوْدٍ. وتبادر الناس إلى الحِجْر فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجرين عن ثاييهم يتلقّون الماء الذي يصّبه الميزاب برؤوسهم وأيديهم وأفواههم، مزدحمين عليه ازدحامًا عظيمًا، أَحْدَثَ ضوضاء عظيمة، كلٌّ يحرص على أنْ ينال جسُمه من رحمة الله نصيبًا، ودعاؤهم قد علا، ودموع أُهل الخشوع منهم تسيل فلا تسمع إلا ضجيج دعاء أو نشيج بكاء.

والنساء قد وقفن خارج الحِجْر ينظرن بعيون دوامع، وقلوب خواشع، يتمنين ذلك الموقف لو ظفرن به، وكان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يُبلّ ثوبه بذلك الماء المبارك، ويخرجُ إليهنّ ويَعْصِره في أيدي البعض منهن، فيلقّينه شُربًا ومسحًا على الوجوه والأبدان.

وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب، وتمادى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقّي ماء الميزاب بالأيدي والوجوه والأفواه، وربما رفعوا الأواني ليقع فيها، فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة،ثقةً بفضله وكرمه، ولِما اقترن بها من

---

[٢١] رحلة ابن جبير، ص ٩١ – ٩٣.

[٢٢] رحلة ابن جبير، ص ٩٣، ٩٤.

[٢٣] سحابة قادمة من جهة البحر، وتشاءمتْ يعني من جهة الشام.

القرائن المباركة. فمنها: أنها كان عشية الجمعة، وفضل اليوم فضله، والدعاء فيها يرجى من الله تعالى قبوله، لما ورد فيها من الأثر الصحيح، وأبواب السماء تفُتح عند نزول المطر، وقد وقف الناس تحت الميزاب وهو من المواضع التي يُستجاب فيها الدعاء، وطهرت أبدانهم رحمة الله النازلة من سمائه إلى سطح بيته العتيق، الذي هو حِيال البيت المعمور، وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف،جعلنا الله ممن ظهُر فيه من أرجاس الذنوب، واختصَّ من رحمة الله تعال بذُوب، ورحمته واسعة تسع عباده المذنبين، إنه غفور رحيم»[٢٤].

وأكثر المشاهد والقباب تُرتكب عندها عظائم الأمور، فضلًا عن اتخاذها مزارات ومشاهد، والتبرُّك والتمسُّح بها، ودعاء أصحابها من دون الله، وشد الرحال إليها، والعكوف والمجاورة والصلاة عندها.

وقد أشار الإمام أحمد بن عبد الحليم المشهور بابن تيمية الحراني إلى أنّأول مَنْ فَتَن المسلمين وأَحْدَث فيهم هذه البدع: الروافض، وما تفرع عنهم من فرق الباطنية، التي انتشرت بين المسلمين، والطرق الصوفية، ثم الفرق الحاقدة، كالإسماعيلية، والقرامطة، والنصيرية، والاتحادية، والحلولية، فهؤلاء هم الذين أشاعوا هذه البدع حينما كانت لهم دولة – بعد قيام الدولة الفاطمية، ودولة القرامطة – في القرن الرابع وما بعده، ونشروا هذه الشركيات وأقاموها في بلاد المسلمين[٢٥].

المطلب الثاني

الاحتفال باستهلال الأهلة أول كل شهر واحتفالات رجب خاصة وغسل البيت بعد هذه الاحتفالات

لاشك في أنَّ الله عز وجل قد نصب الأهلة للناس ليقيموا بها حياتهم، فبها تعرف السنين والشهور والأيام، وبها تعرف العبادات كالحج وصيام رمضان.

ولهذا رأينا إمامًا مثل خليفة بن خياط يفتتح كتابه في التاريخ بالتنبيه على أهمية الأهلة، فيقول: «هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدد نسائهم، ومحل ديونهم، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ

---

[٢٤] رحلة ابن جبير، ص ٩٥– ٩٦.

[٢٥] تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط (٧)، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، (٦٦/١، مقدمة التحقيق).

مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾» إلخ[٢٦].

ورغم هذه الأهمية فلا نجد في الشرع سندًا لاتخاذ استهلال الهلال عيدًا يُحتفل به،خلافًا لما كان عليه أهل مكة آنذاك.

المسألة الأولى: الاحتفال باستهلال الهلال أول كل شهر:

فقد كان أهلُ مكة يعتبرون أول الشهر عيدًا يستحق الاحتفال به، واستحسن ذلك ابن جبير حين شاهده منهم، وقال: «ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضًا، ويتغافرون، ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الأعياد، هكذا دائما، وتلك طريقة من الخير واقعة في النفوس، تجدد الإخلاص، وتستمد الرحمة من الله عز وجل بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضًا، وبركة ما يتهادونه من الدعاء والجماعة رحمة، ودعاؤهم من الله بمكان»[٢٧].

وقد عاين ابن جبير هذه الاحتفالات وسجلها في عدد من الشهور كما سبق، وكما في أول رمضان المبارك[٢٨]، وأول شوال[٢٩]، وغيرها.

المسألة الثانية: احتفالات شهر رجب:

ولرجب عند أهل مكة منزلة خاصة من بين سائر شهور السنة، حتى إن ابن جبير يسجل أنّ «هذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة، وهو أكبر أعيادهم، ولم يزالوا على ذلك قديمًا وحديثًا، يتوارثه خلف عن سلف، متصلًا ميراث ذلك إلى الجاهلية؛ لأنهم كانوا يسمونه مُنْصِل الأسنة[٣٠]، وهو أحد الأشهر الحرم وكانوا يحرمون القتال فيه»، ويذكر ابن جبير أن «العمرة الرجبية عندهم أخت الوَقْفة العَرَفِيّة[٣١]؛ لأنهم يحتفلون لها الاحتفال الذي لم يُسمع بمثله، ويبادر إليها أهل الجهات المتصلة بها، فيجتمع لها خلق عظيم لا يحصيهم إلا الله عز وجل، فمن لم يشاهدها بمكة لم يشاهد مرأى يستهدى ذِكْره غرابة وعجبًا، شاهدنا[٣٢] من ذلك أمرًا يعجز الوصف عنه، والمقصود منه الليلة التي يستهل فيها الهلال مع

---

[٢٦] أبي عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، التاريخ، المحقق: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٢)، ١٣٩٧هـ، ص ٤٩.

[٢٧] رحلة ابن جبير، ص١٠١، ١٠٢.

[٢٨] المصدر السابق، ص ١٢٢.

[٢٩] المصدر السابق، ص ١٣٣.

[٣٠] يعني: يزيل نصلها كونه أحد الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال.

[٣١] يعني التي على جبل عرفات.

[٣٢] القائل هو ابن جبير.

صبيحتها، ويقع الاستعداد لها من قبل ذلك بأيام، فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار، وذلك لأنّا عايّنا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء –وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال – قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل، مكسوة بأنواع كساء الحرير، وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة، بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كلٌّ يتأنّق ويحتفل بقدر استطاعته، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم، ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها، والإبل قد زُينت تحتها بأنواع التزيين، وأُشعرت بغير هدي بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض.

ومن أغرب ما شاهدنا من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليته، عمة الأمير مكثر[٣٣]، فإن أذيال ستره كانت تسحب على الأرض انسحابًا، وغيره من هوادج حرم الأمير، وحرم قواده، إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزًا عن الإحصاء، فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة، فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق.

ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها، ومن المجاورين، وكنا في جملة من خرج ابتغاء بركة الليلة العظيمة، فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج، والنيران قد أُشْعِلت بحافتي الطريق كله، والشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة.

فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعي بين الصفا والمروة، وقد مضى هَوِيٌّ من الليل؛ أبصرناه كله سرجًا ونيرانًا، وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن، فكنا لا نتخلص إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبل لكثرة الزحام واصطكاك الهوادج بعضها على بعض.

فعايّنا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا، فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجَبًا يُحدّث به، ولا عجَبًا يُذكّره مرأى الحشر يوم القيامة؛ لكثرة الخلائق فيه، محرمين ملّبين داعين إلى الله عز وجل ضارعين، والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها، حتى سُكّت المسامع وسُكبت من هول تلك المعاينة المدامع، وذابت القلوب الخواشع.

وفي تلك الليلة مُليء المسجد الحرام كله سُرُجًا،فتلألأ نورًا، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير؛ أمر بضرب الطبول والدَّبادِب والبوقات إشعارًا بأنها ليلة الموسم.

فلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج إلى العمرة في احتفالٍ يُسمع بمثله، انحشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم، فخرجوا على مراتبهم، قبيلة قبيلة، وحارة حارة، شاكّين في الأسلحة، فرسانًا ورجاله، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة، يتعجّب المعاين لهم لوفور عددهم، فلو أنهم

---

[٣٣] أمير مكة في ذلك الوقت.

من بلاد جمة لكانوا عجًبا، فكيف وهم من بلد واحد؟ وهذا أدلّ الدلائل على بركة البلد. فكانوا يخرجون على ترتيبٍ عجيب، فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم، ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجالة يتواثبون وَيثَاقَفُون بالأسلحة في أيديهم حِرَابًا وسيوفًا وجَفَاوهم يُظهرون التطاُعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيوف، والمدافعة بالجَحَف التي يَسْتَجِنّون بها، وأظهروا من الحذق بالثّقاف كلّ أمرٍ مُستغرب.

وكانوا يرمون بالحِراب إلى الهواء،ويبادرون إليها لَقْفًا بأيديهم، وهي قد تَصَوّبت أَسِنّتُها على رؤوسهم، وهم في زحام لا يمكن فيه المجال، وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء فيتلقّونها قبضًا على قوائمها كأنها لم تفُارق أيديهم، إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، وأبناؤه أمامه، وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامه، والطبول والدبادب بين يديه، والسكينة تفيض عليه[٣٤]، وقد امتلأت الجبال والطرق والثّنيات النّظّارة من جميع المجاورين.

فلما انتهى إلى الميقات، وقضى غرضه؛ أخذ في الرجوع، وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم، والرّجّالة على الصفة المذكورة من التّجاول، وقد ركب جملة من أعراب البوادي ذُجُبًا هُدّابًلم يُرَ أجمل منظرًا منها، ورُاكّبها يُسابقون الخيل بها، بين يدي الأمير، رافعين أصواتهم بالدعاء له، والثناء عليه، إلى أن وصل المسجد الحرام، فطاف بالكعبة، والقراء أمامه، والمؤذن الزمزمي يغرد في سطح قبة زمزم، رافعًا عقيرته بتهنئته بالموسم، والثناء عليه، والدعاء له على العادة، فلما فرغ من الطواف صلى عند الملتزم، ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه، وقد أُخْرج له من الكعبة ووُضع في قبةالخشبية التي يُصلّى خلفها، فلما فرغ من صلاته رُفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح به، ثم أُعيدت القبة عليه، وأخذ في الخروج على باب الصفا، إلى المسعى، وانجُفل بين يديه، فسعى راكبًا، والقواد مطيفون به، والرّجّالة الحرّابة أمامه، فلما فرغ من السعي اسلّت السيوف أمامه، وأُحْدقت الأشياع به، وتوجّه إلى منزله على هذه الحالة الهائلة،مزحوفًا به، وبقي المسعى يومه ذاك يموج بالساعين والساعيات.

فلما كان اليوم الثاني – وهو يوم الجمعة – كان طريق العمرة في العمارة قريبًا من أمسه، راكبين وماشين، رجالًا ونساء، والنساء الماشيات المتأجّرات كثيرٌ سابقن الرجال في تلك السبيل المباركة، تقبل الله من جميعهم بمنه.

وفي أثناء ذلك يلاقي الرجال بعضهم بعضًا فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم، والنساء كذلك، والكلّ منهم قد لبس أفخر ثيابه، واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد.

وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يَعْبَأون، وله يحتفلون، وفي المباهاة فيه

---

[٣٤] أي سكينة في وسط هذا الزحام والصخب والطبل والدبادب؟.

يتنافسون وله يعظمون، وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم، يقدّمون النظر في ذلك والاستعداد له بأشهر»[٣٥].

ويؤكد ابن جبير على أنّ «العمرة في هذا الشهر كله متصلة، ليلًا ونهارًا، رجالًا ونساءً، لكن المجتمع كله إنما كان في الليلة الأولى، وهي ليلة الموسم عندهموالبيت الكريم يُفتح كل يوم من هذا الشهر المبارك، فإذا كان اليوم التاسع والعشرون منه أُفرِد للنساء خاصة، فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم احتفال عظيم، فهو عندهم يوم زينتهم المشهور المُسْتَعَد له.

وفي يوم الخميس – الخامس عشر من الشهر المذكور – شاهدنا من الاحتفال للعمرة قريبًا من المشهد الأول المذكور في أوله، فكان لا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها، وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات، من العمرة وسواها، ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز، وكذلك السابع والعشرون منه.

وفي عشي يوم الخميس المذكور، كنّا جلوسًا بالحِجْر المكرم فما راعنا إلّا الأمير مكثر طالعًا محرمًا، قد وصل من ميقات العمرة تبّركا بذلك اليوم، وجريا فيه على الرسم، وأبناؤه وراءه محرمين، وقد حفّ به بعض خاصته، وبادر المؤذن الزمزمي للحين إلى سطح قبة زمزم، داعيًا على عادته، متناوبًا في ذلك مع أخيه صغيره.

وحانت صلاة العشاء مع فراغ الأمير من طوافه، فصلى خلف الإمام الشافعي[٣٦]، وخرج إلى المسعى المبارك.

وفي يوم الجمعة السادس عشر منه، خرجت قافلة كبيرة من الحاجّ في نحو أربعمائة جمل، مع الشريف الدّاُودي إلى زيارة الرسول ﷺ، وفي جمادى لثانية قبله كانت أيضًا زيارة أخرى لبعض الحجاج في قافلة أصغر من هذه المذكورة، وبقيت الزيارة الشَّلَفِية[٣٧] والتي مع الحاجّ العراقي إثَر الوقفة إن شاء الله عز وجل.

وفي التاسع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة في كنف السلامة والحمد لله».

ثم يذكر ابن جبير احتفال السابع والعشرين من رجب «في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين منه، ظهر لأهل مكة أيضًا احتفالٌ عظيم، في الخروج إلى العمرة، لم يقصر عن الاحتفال الأول، فانجفل الجميع إليها تلك الليلة، رجالًا ونساءً على الصفات والهيئات المتقدمة الذّكْر، تبرُّكًا بفضل هذه الليلة؛ لأنها من الليالي الشهيرة الفضل، فكانت مع صبيحتها عجبًا في

---

[٣٥] رحلة ابن جبير، ص ١٠٦ – ١١٠.

[٣٦] يعني: إمام المذهب الشافعي، فقد كان لكل مذهب إمامه وجماعته الخاصة بالحرم.

[٣٧] نسبة إلى شهر شوال.

الاحتفال وحُسْن المنظر، جعل الله ذلك كله خالصا لوجه الكريم.

وهذه العمرة يُسمونها عُمرة الأَكَة لأنهم يُحرمون فيها من أَكَمة إمام مسجد عائشة رضي الله عنها، بمقدار غَلْوة، وهي على مقربة من المسجد المنسوب لعلي عليه السلام.

والأصل في هذه العمرة الأكمية عندهم أنّ عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما؛ لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيًا حافيًا معتمرًا وأهل مكة معه، فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها، وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب، وجعل طريقه على ثنّية الحجّون المفضية إلى المعلى التي كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها، حسبما تقدم ذِكْره، فبقيت تلك العمرة سُنّة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه، وعلى تلك الأكمة بعينها.

وكان يوم عبد الله رضى الله عنه مذكورًا مشهورًا؛ لأنه أهدى فيه كذا وكذا بَدَنة، عددًا لم تتحصّل صحته فكنتُ أثبتّه لكنه بالجملة كثير.

ولم يبق من أشراف مكة وذوي الاستطاعة فبها إلا من أهدى، وأقام أهلها أيامًا يُطْعمون ويُطْعمون، ويَتَنَعّمون ويُنَعّمون، شكرًا لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير في بناء بيته الحرام، على الصفة التي كان عليها مدة الخليل إبراهيم ﷺ، فنقضها الحَجَّاج لعنه الله، وأعادها على ما كانت عليه مدة قريشٌ؛ لأنهم كانوا اقتصروا في بنائه عن قواعد إبراهيم ﷺ وأبقى نبينا محمد ﷺ ذلك على حاله لحِدْثان عهدهم بالكفر، حسبما ثبت في رواية عائشة رضى الله عنها في موطأ مالك بن أنس رضى الله عنه[٣٨].

وفي اليوم التاسع والعشرين منه[٣٩] – وهو يوم الخميس – أُفْرِد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أُوب، وقد تقدّم احتفالهن لذلك بأيام كاحتفالهنّ للمشاهد الكريمة، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم.

فلما وصل الشيبيون لفتح البيت الكريم على العادة؛ أسرعوا في الخروج منه وأفرجوا للنساء عنه، وأفرج الناس لهنّ عن الطواف وعن الحِجْر، ولم يبق حول البيت المبارك أحد من

---

[٣٨] وقد رواه الإمام مالك بإسناده عن عبد الله بن عُمَر – يعني ابن الخطاب – عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الْكَعْبَةَ، اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟» قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ». قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَئِنْ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ مَا أُرَى رَسُولَ اللهِ تَرَكَ اسْتِلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحِجْرَ، إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ. انظر: الإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الموطأ، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، الإمارات، ط (١)، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م، (٣/٥٣٠/٣٧٨).

[٣٩] أي من شهر رجب.

الرجال؛ تبادر النساء إلى الصعود، حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت الكريم، وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة، وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السرو اليمنيين مدة مقامهم بمكة، وصعودهم يوم فتح البيت المقدس، وأشبهت الحالُ الحالَ، وتمادَيْن على ذلك صدرًا من النهار، وانفسحن في الطواف والحِجْر وتشفّين من تقبيل الحَجَر، واستلام الأركان، وكان ذلك اليوم عندهنّ الأكبر، ويومهن الأزهر الأشهر، نفعهن الله به، وجعله خالصًا لكريم وجهه.

وبالجملة فهنّ مع الرجال مسكينات مغبونات، يَرَيْن البيتَ الكريم ولا يلِ جْنه، ويلحظن الحَجَر المبارك ولا يَسْلَتِمْنه، فحظهنّ من ذلك كله النظر والأسف المستطير المستشعر، فليس لهنّ سوى الطواف على البُعد، وهذا اليوم الذي هو من عام إلى عام؛ فهنّ يرتقِبْنه ارتقاب أشرف الأعياد ويُكْثِرن له من التأهُّب والاستعداد، والله ينفعهن في ذلك بحسن النية والاعتقاد بمنه وكرمه»[٤٠].

المسألة الثالثة: غسل البيت بماء زمزم وما يحدث فيه:

وبعد هذه الاحتفالات، والزينة والزحام، المذكور قبله في شهر رجب، يقوم بني شيبة الشيبيون سدنة البيت بغسله، فلا يكون غسل البيت أقل ازدحامًا من الاحتفالات السابقة، تبرُّكًا بماء زمزم حين يصب داخل البيت الحرام، فيقع الازدحام عليه، للنيل منه والتبرُّك به، حتى إنّك تلمح هذا في لهجة ابن جبير وهو يؤرّخ لهذا الحَدَث المهم «في اليوم الثاني منه[٤١] بكَر الشيبيون إلى غسله بماء زمزم المبارك، بسبب أنّ كثيرًا من النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع معهن فيُتحرَّى غسله تكريمًا وتنزيهًا، وإزالةً لما يحيك في النفوس من هواجس الظنون فيمن ليست له مَلَكَة عقلية تمنعه من أنْ تصدر عنه حادثة نَجس في ذلك الموطن الكريم، والمحل المخصوص بالتقديس والتعظيم، فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه تبرُّكًا بغسل أوجههم وأيديهم فيه، وربما جمعوا منه في أوانٍ قد أعدّوها لذلك، ولم يراعوا العلّة التي غُسِل لها،وكان منهم من توقّف عن ذلك،وربما لَحَظَ الحال لحظةً من لا يَسْتَجيزها ولا يصوّب العقل في ذلك. وما ظنُّك بماء زمزم المبارك قد صُبّ داخل بيت الله الحرام وماج في جنبات أركانه الكرام ثم بإزاء الملتزم والركن الأسود المستلم؟ أليس جديرًا بأنْ تتلقّاه الأفواه فضلًا عن الأيدي؟ وتُغمس فيه الوجوه فضلًا عن الأقدام؟ وحاشا لله أنْ تُعرِض في ذلك علّة تمنع منه، أو شُبْهة من شبهات الظنون تدفع عنه، والنيات عند الله تعالى مقبولة، والثابرة

---

[٤٠] رحلة ابن جبير، ص ١١٣ – ١١٦.

[٤١] يعني من شهر رجب الذي جرت فيه الاحتفالات المشار إليها قبل هذا مباشرة.

على تعظيم حرماته برضاه موصولة، وهو المُجازي على الضمائر وخفّيات السرائر، لا إله سواه»[٤٢].

المطلب الثالث

الاحتفال بليلة النصف من شعبان وفيضان ماء زمزم

وما يكون في ذلك من أكاذيب واعتقادات باطلة

ويأتي في سلسلة احتفالات أهل مكة وأعيادهم في ذاك العهد، تلك الاحتفالات التي كانوا يقيمونها في شهر شعبان، خاصة في ليلة النصف منه.

وقد بَكّر أمير مكة في صبيحة أول شعبان إلى الطواف، على العادة في ذلك رأس كل شهر مع أخيه وبنيه ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والأشياع والأتباع، وعلى الأسلوب المتقدم الذكر، والإمام الزمزمي يصرخ على عادته متناوبا مع أخيه صغيره، بالثناء على الأمير، والدعاء له.

وقد عاين ابن جبير هذه الاحتفالات، وسجّلها بقلمه، خاصة تلك المزاعم التي أثيرت حول زيادة ماء زمزم، «في يوم الجمعة الثاني من شعبان، فقد أصبح بالحرم أمر عجيب، وذلك أنه لم يبق بمكة صبي إلا وصبّحه، واجتمعوا كلهم في قبة زمزم، وينادون بلسان واحد: هللوا وكبروا يا عباد الله، فيهلل الناس ويكبرون، وربما دخل معهم من عرض العامة من ينادى معهم بندائهم، والناس والنساء يزدحمون على قبة البئر المباركة؛ لأنهم يزعمون؛ بل يقطعون قطعًا جهليًّا لا قطعًا عقليًّا أنَّ ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان.

وكانوا على ظنٍّ[٤٣] من هلال الشهر؛ لأنه قيل: إنه رُؤِى ليلة الجمعة في جهة اليمن، فَبكّر الناس إلى القبةوكان فيها من الازدحام ما لم يُعهد مثله، ومقصد الناس في ذلك التبرُّك بذلك الماء المبارك، الذي قد ظهر فيضه، والسقاة فوق التنور يستقون، يفيضون على رؤوس الناس الماء بالدلاء ققًا، فمنهم من يصيبه في وجهه، ومنهم من يصيبه في رأسه، إلى غير ذلك، وربما تمادى لشدة نفوذه من أيديهم، والناس مع ذلك يستزيدون، ويبكون، والنساء من جهة أخرى يُساجِلْنهم بالبكاء، ويطارحنهم بالدعاء، والصبيان يصيحون بالتهليل والتكبير، فكان مرأى هائلًا مسموعًا رائعًا، لم يتخلص للطائفين بسببه الطواف، ولا للمصلين صلاة،لعلُوِّ تلك الأصوات، واشتغال الأسماع والأذهان بها.

ودخل إلى القبة المذكورة أحدُنا ذلك اليوم، فكابد منالزحام عنتًا ومشقةً ، فسمع الناس

---

(٤٢) رحلة ابن جبير، ص ١١٦– ١١٧.

(٤٣) أي شكٍّ.

يقولون: زاد الماء سبع أذرع، فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقلٍ ونظر من ذوي السِّبال[٤٤] البيض فيسأله عن ذلك فيقول – وأدمعه تسيل–: نعم زاد الماء سبع أذرع لا شك في ذلك، فيقول: أَعَنْ خبرةٍ وحقيقة؟ فيقول: نعم.

ومن العجيب أَنْ كان منهم من قال: إنه بكّر سحر يوم الجمعة المذكور فألقى الماء قد قارب التنور بنحو القامة، فيا عجبًا لهذا الاختراع الكاذب؟ نعوذ بالله من الفتنة!.

وكان من الاتفاق أنِ اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها في ذلك، واستمرارها من سوالف الأزمنة عند عوام أهل مكة، فتوجّه منّا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة إلى أَنْ ضرب في صفح الماء وانتهى الحبل إلى حافة التنور وقَدَّ فيه عقدًا يصحّ عندنا القياس به في ذلك. فلما كان في صبيحتها وتنادى الناس بالزيادة – الزيادة الظاهرة – خلص أحُدنا في ذلك الزحام على صعوبةٍ، ومعه من استصحب الدلو وأدْلاه فوجد القياس على حاله لم ينقص ولم يزد؛ بل كان من العجب أَنْ عاد للقياس ليلة السبت فألفاه قد نقص يسيرًا؛ لكثرة ما امتاح[٤٥] الناس منه ذلك اليوم، فلو اْتِيح من البحر لظهر النقصُ فيه، فسبحان من خَصّ ذلك الماء بما خُصَّ به من البركة ووُضِع فيه من المنفعة.

وفي صبيحة يوم السبت الخامس عشر منه[٤٦] تتبَّعنا هذا القياس استبراءً لصحّة الحال؛ فوجدناه على ما كان عليه، ولو أنّ لافظًا يلفظ ذلك اليوم بأنّه لم يزد لصُبَّ في البئر صبًّا، أو لداسته الأقدام حتى تذيبه، نعوذ بالله من غَلَبات العوام واعتدائها وركوبها جَوامِح أهوائها».

وبعد أن يتوجّع ابن جبير من غَلَبات العوام، واعتدائهم في القول والفعل على غير الحقيقة، يواصل وصف ما جرى في ليلة النصف من شعبان، فيقول: «وهذه الليلة المباركة – أعني ليلة الصنف من شعبان – عند أهل مكة مُظَمَّمة؛ للأثر الكريم الوارد فيهافهم يُ بادرون فيها إلى أعمال البر، من العمرة والطواف والصلاة، أفرادًا وجماعة، فينقسمون في ذلك أقسامًا مباركة.

فشاهدنا ليلة السبت التي هي ليلة النصف حقيقةً احتفالا عظيمًا في الحرم المقدس إثر صلاة العتمةجعل الناس يُصلّون فيها جماعات؛ جماعات، تراويح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب،

---

[٤٤] اللِّحى.

[٤٥] أي استقى. انظر: أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، غريب الحديث، المحقق: د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط (١)، ١٣٩٧هـ، (٤٦٣/٢)؛ القاموس المحيط، للفيروز آبادي، ص ٢٤٣.

[٤٦] أي من شهر شعبان.

وبـ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عشر مراتٍ في كل ركعة[٤٧]، إلى أنْ كلموا خمسين تسليمة بمائة ركعة، قد قدَّمت كلُّ جماعة إمامًا وبُسطت الحُصُر، وأُوقدت الشُّمع، وأُشْعِلت المشاعل، وأُسْرِجَت المصابيح، ومصباح السماء الأزهر الأقمر قد أفاض نوره على الأرض، وبسط شعاعه، فتلاقت الأنوار في ذلك الحرم الشريف الذي هو نورٌ بذاته، فيا لك مرأى لا يتخّيله المتخيِّل ولا يتوّهمه المتوهِّم!

فأقام الناس تلك الليلة على أقسام: فطائفة التزمت تلك التراويح مع الجماعة، وكانت سبع جماعات أو ثمانيا، وطائفة التزمت الحِجْر المبارك للصلاة على انفراد، وطائفة خرجت للاعتمار، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله، أغلبها المالكية، فكانت من الليالي الشهيرة المأمولة أنْ تكون من غرر القربات ومحاسنها، نفع الله بها، ولا أخلى من بركتها وفضلها، وأوصل إلى هذه المثابة المقدسة كل شّيق إليها بمنه.

وفي تلك الليلة المباركة شاهد أحمد بن حسان – منّا –أمرًا عجيبًا، هو من غرائب الأحاديث المأثورات،في رقّة النفوس، وذلك أنه أصابه النوم عند الثلث الباقي من الليل، فأوى إلى المصطبة التي تحفّ بها قبة زمزم مما يقابل الحجر الأسود وباب البيت، فاستلقى فيها لينام، فإذا بإنسان من العجم قد جلس على المصطبة بإزائه مما يلي رأسه، فجعل يقرأ بتشويق وترقيق ويُتبع ذلك بزفير وشهيق؛ أحسن قراءة، وأوقعها في النفوس، وأشدها تحريكًا للساكن، فامتنع المذكور من المنام استمتاعًا بحُسْن ذلك المسموع، وما فيه من التشويق والتخشيع، إلى أنْ قطع القراءة وجعل يقول:

نْ كـــانَ سُـــــ الفِعـــــالِ أَبعَـــدَني حُسْـــــنُ ظَنِّـــــي إِ يْـــــكَ رَبِّـــــي

ويُردِّد ذلك بلحنٍ يتصدّع له الجماد، وينشق عليه الفؤاد، ومضى في ترديد ذلك البيت ودموعه تكفُ،وصوته تَرِقّ وتَضْعُف، إلى أن وقع في نفس أحمد بن حسان المذكور أنّه سيُغشى عليه، فما كان بين اعتراض هذا الخاطر في نفسه وبين وقوع الرجل مغشيًا عليه من المصطبة إلى الأرض إلّا كَلَا لَا وبقي مُطْرِقًا كأنه لَقًى لا حراك به،فقام ابن حسان مذعورًا لهول ما عاينه، متردِّدًا في حياة الرجل أو موته، لشدة تلك الوجبة، والموضع من الأرض بائن الارتفاع، وقام أحد من كان بإزائه نائمًا، وأقاما متحيِّرين لم يُقدما على تحريك الرجل، ولا على الدُّوِّ منه، إلى أن اجتازت امرأةٌ أعجمية وقالت: هكذا تتركون هذا الرجل على مثل هذا الحال؟ وبادرت إلى شيءٍ من ماء زمزم فنضحتْ به وجهه، ودنا المذكوران منه وأقاماه، فعندما أبصرهما زَوى وجهه للحين عنهما، مخافة أنْ تثبتَ له صفةٌ في أعينهما، وقام من فوره آخذًا إلى جهة باب بني شيبة، وبقيا متعجبين مما شاهداه، وعضّ ابن حسان بنانَ الأسف على ما فاته من بركة دعائه؛ إذ لم يمكّنه الحال استدعاءه منه، وعلى أنه لم تثبت له صورة في نفسه فكان يتبرّك

---

[٤٧] ولا سند في الشرع لهذه الهيئة المخصوصة بصلاة التراويح أيضًا.

به متى لقيه.

ومقامات هؤلاء الأعاجم في رقّة الأنفس وتأثرها، وسرعة انفعالها، وشدة مجاهداتها في العبادات، وطول مثابرتها على أفعال البر، وظهور بركاتها؛ مقامات عجيبة شريفة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء»[٤٨].

المطلب الرابع

احتفالات شهر رمضان والتراويح وعيد الفطر

ولشهر رمضان خصيصة دون بقية شهور العام، فهو موسم الطاعات، وأيام الرحمات، وهو في مكة يختلف عن بقية البلاد، خاصة مع تعدُّد الأئمة في الصلاة فرقًا ليس لتفرُّقها سند في الشرع، وتكرار الاحتفالات بتكرار الأئمة والمذاهب، والمفاخرة بينها في إضاءة الشموع ونحوها.

ولم يخل ما وقع في مكة أثناء احتفالات رمضان وعيد الفطر من بعض السلبيات، والعادات التي لا سند لها شرعًا.

ومن حسن حظنا أن نجد مفردات هذا كله فيما سجله ابن جبير في رحلته، حين حج إلى بيت الله الحرام، فإذا به يصوّر الأمر بتفاصيله، حيث «وقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك من تجديد الحصر، وتكثير الشمع، والمشاعيل، وغير ذلك من الآلات، حتى تلألأ الحرم نورًا، وسطع ضباءً،وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقًا، فالشافعية فوق كل فرقة منها، قد نصبت إمامًا لها في ناحية من نواحي المسجد، والحنبلية كذلك، والحنفية كذلك، والزيدية، وأما المالكية فاجتمعتْ على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، وهي في هذا العام أحفل جمعًا، وأكثر شمعًا؛ لأن قومًا من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك، فجلبوا لإمام الكعبة شمعًا كثيرًا من أكبره شمعتان تُنصبتا أمام المحراب، فيهما قنطار، وقد حفت بهما شمع دونهما صغار وكبار، فجاءت جهة المالكية تروق حسنًا،وترتمي الأبصار نورًا، وكاد لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يُصلّي بجماعة خلفه،فيرتج المسجد لأصوات القَرأَة من كل ناحية، فتعاين الأبصار، وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعًا تتخلع له النفوس خشية ورقّة».

ويذكر ابن جبير أن الشافعي أكثر اجتهادًا، وذلك أنه يكمل التراويح المعتادة التي هي عشر تسليمات، ويدخل الطواف مع جماعة فإذا فرغ وركع عاد لإقامة تراويح أخرى، وضرب بالفرقعة الخطيبية ضربة يسمعها المسجد لعلو صوتها؛ كأنها إيذان بالعود إلى الصلاة، فإذا فرغوا من تسليمتين عادوا لطواف، فإذا أكملوه ضربت الفرقعة، وعادوا لصلاة تسلميتين، ثم عادوا

---

[٤٨] رحلة ابن جبير، ص ١١٧ – ١٢١.

للطواف، هكذا إلى أن يفرغوا من عشر تسليمات، فيكمل لهم عشرون ركعة، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون. وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئًا». ويذكر ابن جبير أنّ «هذه الفرقعة المذكورة تستعمل في هذا الشهر المبارك، وذلك أنه يضرب بها ثلاث ضربات: عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفرغ من أذان العشاء الآخرة، وهي لا محالة من جملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم، قدّسه الله».

«وهذا الشهر المبارك قد ذكرنا اجتهاد المجاورين للحرم الشريف في قيامه وصلاة تراويحه وكثرة الأئمة فيه وكل وتر من الليالي العشر الأواخر يختم فيها القرآن، فأولها ليلة إحدى وعشرين ختم فيها أحد أبناء أهل مكة وحضر الختمة القاضي وجماعة من الأشياخ، فلما فرغوا منها قام الصبي فيهم خطيبًا، ثم استدعاهم أبو الصبي المذكور إلى منزله إلى طعام وحلوى قد أعدهما، واحتفل فيهما.

ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشرين، وكان المُحْتَرَم فيها أحدُ أبناء المكيين ذوي اليسار، غلامًا لم يبلغ سِنّه الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالًا بديعًا»، بأنواع الآلات والشموع والفواكه الرطبة واليابسة، وأُعِدّ له شمع كثير وُضِع في وسط الحرم، مما يلي باب بنى شيبة، وأُمعِن الاحتفال في هذا كله، ووضع بمقربة من الإمام الطفل وهو يصلّي التروايح وختم، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالًا ونساء، وهو في محرابه لا يكاد يبصر من كثرة شعاع الشمع المحدق به، فلمَّا أنهى صلاته خطب خطبته، وبين يديه في درجات المنبر نفر يمسكون أنوار الشمع في أيديهم، ويرفعون أصواتهم بيا رب يا رب عند كل فصل من فصول الخطبة، يكررون ذلك والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك، فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته، وتمادى فيها متصرفا في فنون من التذكير حتى انتهى منها. ثم ذكر أنّ المعينين من ذلك الجمع كالقاضي وسواه خُصّوا بطعام حفيل، وحلوى على عادتهم في مثل هذا المجتمع، وكانت لأبي الخطيب في تلك الليلة نفقة واسعة في جميع ما ذكر.

ونحو هذا ما فعله الإمام الحنفي في احتفاله بابنه حين اختتم ليلة خمس وعشرين، وجرى على الرسم من الإطعام لمن حضر من أعيان المكان، إما باستدعائهم إلى منزله تلك الليلة، أو بتوجيه ذلك إلى منازلهم.

ثم جاء احتفال إمام الشافعية ليلة سبع وعشرين، فكان احتفالًا عظيمًا جدًّا، بأكثر مما سبق، ووقع النظر والاحتفال هذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وكاد شعاع الأنواء التي أُضِيئتْ في هذا اليوم يغشى الأبصار، فلا تقع لمحة طرف إلا على نور، ولم يتمكّن الخطيب من إسماع الخطبة للازدحام وضوضاء العوام.

وأما ليلة تسع وعشرين من رمضان فقد كانت من نصيب الإمام المالكي، واحتفل جميع

المالكية للختمة، فتناوبها أئمة التراويح فقضوا صلاتهم، وفي ليلتهم اختُطِفت الشموع، وانتُهِبْت.

ثم استهل هلال شوال، وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام زاده الله تكريمًا، جرى الرسم في إيقاد مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، وأوقدت الصوامع من الأربع جهات من الحرم، وأُوقد سطح المسجد الذي في أعلى جبل أبي قبيس، وأقام المؤذن ليلته تلك في أعلى سطح قبة زمزم مهلّلًا ومكبرًا ومسبّحًا وحامدًا، وأكثر الأئمة تلك الليلة أحيا، وأكثر الناس على مثل تلك الحال بين طواف وصلاة وتهليل وتكبير، فلما كان صبيحتها وقضى الناس صلاة الفجر؛ لبس الناس أثواب عيدهم، وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام؛ لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مُطَلًّى يخرج الناس إليه، رغبة في شرف البقعة.

وأَقْبل الناس بعضهم على بعضٍ بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء، مسرورين جذلين، فرحين بما آتاهم الله من فضله، وبادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين، مزدحمين عليه فوجًا فوجًا، فكان مشهدًا عظيمًا، وجمعًا بفضل الله تعالى مرحومًا، وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم وقضاء سنة السلام بعضهم على بعضٍ في زيارة الجبانة بالمعلى، تبرُّكًا باحتساب الخطا إليها، والدعاء بالرحمة لمن فيها من عباد الله الصالحين، من الصدر الأول وسواه رضى الله عن جميعهم، وحشرنا في زمرتهم، ونفعنا بمحبتهم، فالمرء -كما قال ﷺ: (مع من أحب)»[٤٩].

ومع هذا فلا نجد في الشرع سندًا لزيارة المقابر يوم العيد، ولا لتفرُّق الأئمة وتعدُّدهم في الحرم ومع هذا فلا نجد في الشرع سندًا لزيارة المقابر يوم العيد، ولا لتفرُّق الأئمة وتعدُّدهم في الحرم ومع هذا فلا نجد في الشرع سندًا لزيارة المقابر يوم العيد، ولا لتفرُّق الأئمة وتعدُّدهم في الحرم، كما لا نجد سندًا للمفاخرة والتباري في الاحتفال بإضاءة الشموع، وإطعام الطعام، وغير ذلك مما لا نجد له سندًا له في الشرع.

المطلب الخامس

الوصية بالدفن في بعض ستائر الكعبة أو صنع التوابيت من أبوابها

ولاشكّ أنّ الأرض المقدسة لا تُقَدِّس أحدًا، وإنما يُقدسُ المرءَ عملُه، فهو وحده الذي يرفعه، لكن كان بعض الناس في مكة يتبرك بالكفن أو الدفن في شيء يتصل بالبيت الحرام.

ومما يُذكر في هذا الباب ما حصل من رجل يُدْعى جمال الدين، كانت له الصنائع الحميدة، في مكة والمدينة، مما لم يسبقه إليه فيما سلف من الزمان ولا أكابر الخلفاء فضلًا عن

---

[٤٩] رحلة ابن جبير، ص ١٢٢ – ١٣٥.

الوزراء، وكان له حمام بمكة باسمه، وقد قاله ابن جبير في وصفه: «وكان هذا الرجل كصفته جمال الدين له رحمه الله»، وذكر ابن جبير أنه جمال الدين هذا كان وزير صاحب الموصل، وأنه تمادى على هذه المقاصد السنية، المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى، وحرم رسوله ﷺ، أكثر من خمس عشرة سنة، لم يزل فيها باذلًا أموالًا لا تحصى في بناء رباع بمكة مسبلة، في طريق الخير والبر مؤبدة محبسة، واختطاط صهاريج للماء، ووضع جباب في الطرق، يستقر فيها ماء المطر، إلى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين، وكان من أشرف أفعاله أنْ جلب الماء إلى عرفات، وقاطع عليه العرب بني شعبة سكان تلك النواحي المجلوب منها الماء بوظيفة من المال كبيرة، على أن لا يقطعوا الماء عن الحاجّ، فلما توفي الرجل رحمة الله عليه عادوا إلى عادتهم الذميمة من قطعه.

ومن مفاخره ومناقبه أيضًا أنه جعل مدينة الرسول ﷺ، تحت سورين عتيقين أنفق فيهما أموالًا لا تحصى كثرة.

ومن أعجب ماوفَّقه الله تعالى إليه أنه جدّد أبواب الحرم كلها.

لكنه كما قال ابن جبير: «جدّد باب الكعبة المقدسة، وغشاه فضة مذهبة،وجلّل العتبة المباركة بلوح ذهب إبريز فأخذ الباب القديم وأمر بأن يُصنع له منه تابوت يُدفن فيه، فلما حانت وفاته أوصى بأنْ يوضع في ذلك التابوت المباركويُحج به ميتًا، فسيق إلى عرفات وُوفِق به على بُعْدٍ، وكُشِف عن التابوت، فلما أفاض الناس أُفيض به، وقُضيت له المناسك كلها، وطِيف به طواف الإفاضة، وكان الرجل رحمه الله لم يحجّ في حياته، ثم حُمل إلى مدينة الرسول ﷺ، وله فيها من الآثار الكريمة ما قدمنا ذِكْره، وكاد أشرافها يحلمونه على رؤوسهم. وبُنت له روضة بإزاء روضة المصطفى ﷺ،وفُتح فيها موضع يلاحظ الروضة المقدسة، وأُبيح له ذلك على شدة الضنانة بمثله؛ لسابق أفعاله الكريمة، ودُفن في تلك الروضة، وأسعده الله بالجوار الكريم، وخصه بالمواراة في تربة التقديس والتعظيم، والله لا يضيع أجر المحسنين»[٥٠].

وأخذ ابن جبير يُعَدِّد فضائل هذا الرجل وأفعاله الحسنة، في عموم نفع المسلمين عامة، والحرمين خاصة.

وعلى الرغم من استغرابنا ما ذكره ابن جبير حول عدم حج هذا الرجل في حياته رغم ما له من الأعمال الحسنة المتصلة بالحرمين، لكن قد يكون كلّف من يقوم بهذا نيابة عنه، ومقصودنا هنا الإشارة إلى قيامه بعمل تابوت لنفسه من الباب القديم للبيت، بعدما جدَّده وجاء بآخر جديد حلّاه بالفضة المذهبة.

---

[٥٠] رحلة ابن جبير، ص ١٠٢– ١٠٣.

على أنه ليس لصنيعه هذا سند في الشرع، أعني اتخاذه تابوتاً من باب الكعبة، ووصيته بأن يُدْفن فيه.

المطلب السادس

التوسُّل المبتدع

وقد جرت العادة في الشريعة بأن يتوسّل الإنسان بعمله الصالح[٥١]، ومع هذا فقد ابتدع الناس في مكة طريقة أخرى للتوسل إلى الله عز وجل بالمصحف، وبفتح باب البيت الشريف، الكعبة المكرمة، والوقف بغير غطاء رأس عند العتبة المباركة، إذا حلّ بهم قحط أو شدة، ويرون أن الله عز وجل يفرّج عنهم بذلك ما هم فيه.

وقد حكى ابن جبير ذلك بقوله: «وفي القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة أصحاب رسول الله ﷺ، وبخط زيد بن ثابت رضى الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله ﷺ، وينقص منه ورقات كثيرة، وهو بين دفتي عودٍ مجلدٍ بمغاليق من صُفْر، كبير الورقات واسعها، عايناه وتبّركنا بتقبيله ومسح الخدود فيه نفع الله بالنية في ذلك.

وأَعْلَمنا صاحب القبة المتولي لعرضه علينا أنّ أهل مكة متى أصابهم قحطٌ أو نالتهم شدة في أسعارهم؛ أخرجوا المصحف المذكور وفتحوا باب البيت الكريم، ووضعوه في العتبة المباركة مع المقام الكريم – مقام الخليل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم –، واجتمع الناس كاشفين رءوسهم، داعين متضرعين، وبالمصحف الكريم والمقام العظيم إلى الله متوسلين، فلا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله عن وجل قد تداركتهم، والله لطيف بعباده لا إله سواه»[٥٢].

المطلب السابع

فرض المكوس[٥٣] على الحجاج

وكان ذلك سنة ٣٢٧، «وكان الحج قد بطل من سنة سبع عشرة وثلاثمائة إلى هذه

---

[٥١] انظر: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، التوسل أنواعه وأحكامه، المحقق: محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط (١)، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، ص ١٥.

[٥٢] رحلة ابن جبير، ص ٨٠– ٨١.

[٥٣] المكس: الجباية والضريبة التي يأخذها الماكس، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية، والماكي العشار. انظر: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مادة (مكس)، بتحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، ط دار صادر بيروت، ٢٠٠٠م، (٢٢٠/٦)؛ مختار الصحاح، (٢٦٣/١)، مادة (مكس).

السنة، فكاتب أبو علي عمر بن يحيى العلوي الفاطمي من العراق أبا طاهر القرمطي – وكان يحبه لشجاعته وكرمه – أنْ يُخَلِّي سبيل الحاجّ على مَكْسٍ يأخذه، ويعطيه على كل جمل خمسة دنانير، وعن المُحَمَّل سبعة دنانير. فأجابه إلى ذلك؛ فخرج من العراق فرقتان، إحداهما على طريق الكوفة، والأخرى على طريق البصرة، وأخذ أبو طاهر منهم من كل محمل عشرين دينارًا، ومن كل جمل خمسة دنانير، ومن كل راحلة عشرين درهما، وهي أول سنة مكس الحاج فيها، ولم يُعهد ذلك في الإسلام. فنفذ الحاج وليس معهم أحدٌ من أصحاب السلطان إلا رجل علوي من أهل الكوفة وهو أبو علي عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، بكتاب القرمطي إليه وذِمامِه، وكان أميرَ القافلة، يسيرون بسيره، وينزلون بنزوله إلى أنْ عادوا سالمين. وكان خرج في هذه السنة مع الركب القاضي أبو علي ابن أبي هريرة الشافعي، فلما طُولِب بالخفارة لوى رأس راحلته ورجع وقال: لم أرجع شُحًّا على الدراهم ولكن سقط الحج بهذا المَكْسِ»[٥٤].

على أنَّه لم تكن المكوس والضرائب تفرض على الحجاج أو اختصَّت بهم في مكة في هذا العهد، إنما تجاوزت ذلك لأمور أخرى، مثل البضائع والمواد الغذائية المجلوبة من البلاد الأخرى.

وذلك في مدد من ولاية أمراء الأشراف[٥٥]. حتى جاء الشريف فليتة (٥١٧ هـ) وهو أحد الأمراء الأشراف، فقام بإلغاء بعض الضرائب غير المباشرة (المكوس)، والتي كانت تفرض على البضاع والمواد الغذائية، أو تؤخذ رسومًا من الحجاج، فقد كانت مكروهة لدى عامة المسلمين؛ لأنه ليس لها سند في التشريع، بالرغم من أنّ هذه الضريبة أقل خطرًا من الإقطاعات المالية، التي كانت تؤخذ عنوة من الإغنياء، تحت طائلة التهديد والعقوبة. وقد كانت هذه الضرائب موجودة في مكة منذ أن كان الخلفاء يتولون حكمها مباشرة، ولم يرغب الأشراف أثناء حكمهم فيما بعد إغلاق هذا المصدر المهم من مصادر الدخل في مكة، فقد كان هؤلاء الأمراء يعتبرون بلاد الله المقدسة هي ميراثهم، وأنّ تأجيرها للحجاج من حقّهم، إلى أنْ قام الشريف فليتة بإلغاء هذه الضرائب والرسوم[٥٦].

فلما أصبح المركز المرموق أثناء فترة الحج من نصيب الأيوبيين، وصارت منابر الحرمين يُدعى عليها لصلاح الدين، بعد الخليفة العباسي وشريف مكة؛ تم إلغاء هذه المكوس،

---

[٥٤] ابن فهد، إتحاف الورى، (٢/٣٨٧– ٣٨٨).

[٥٥] ك. سنوك هور خرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، دارة الملك عبد العزيز، بمناسبة صدور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، (١/١٥٦).

[٥٦] المصدر السابق، ص ١٦٠– ١٦١.

وإزالة المظالم في عهد الأيوبيين، كما تم في عهدهم إزالة ضريبة الرأس التي كانت تفرض على الحجاج الذين لم يكونوا تحت حماية أحد الحكام المهابين في مكة، فأزال صلاح الدين ضريبة الرأس، وتكّفل لحكام مكة بالتعويض عنها، بدفع مبلغ كبير من النقود، وشحن كمية كبيرة من القمح، أُرسلت إلى الحجاز من مصر[٥٧].

وصوَّر ابن جبير هذا المشهد بقوله: « وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فِرَق وشِيَع لا ين لهم، قد تفّرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يُعتقد في أهل الذمة، قد صَيَّروهم من أعظم غَلَّاتِهم التي يستغلّونها: ينتهبونهم انتهابًا، ويسّيون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابًا، فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه. ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمرٍ لا يُنادَى وليُده، ولا يلّين شديده، فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج، وجعل عِوَضَ ذلك مالًا وطعامًا يأمر بتوصيلهما إلى مُكْثِر أمير مكة، فمتى أبطأتْ عنهم تلك الوظيفةُ المترتّبة لهم؛ عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج، وإظهار تَشْقِيفِهم[٥٨] بسبب المكوس. واتفق لنا من ذلك أَنْ وصلنا جُدّة، فأُمسِكْنا بها خلال ما خُوطِب مكثر الأمير المذكور، فورد أمره أَنْ يضمنَ الحاّج بعضهم بعضًا، ويدخلوا إلى حرم الله، فإنْ وردَ المال والطعام اللذان برسمه من قِبَل صلاح الدين وإلّا فهو لا يترك ماله قِبَل الحاّج. هذا لفظه. كأّن حرم الله ميراثٌ بيده مُطَّلٌ له اكتراؤه من الحاّج. فسبحان مُغَيِّر السّنن ومُبَدِّلها.

والذي جعل له صلاح الدين بدلا من مكس الحاج ألفا دينار اثنان وألفا إردب من القمح، وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الإشبيلي عندنا، حاشى إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور.

ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام في حروبٍ له هناك مع الإفرنج لما صَدَر عن هذا الأمير المذكور ما صدر في جهة الحاج.

فأحقّ بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله؛ هذه البلاد الحجازية؛ لما هم عليه من حَلِّ عُرَى الإسلام، واستحلال أموال الحاّج ودمائهم.

فَمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السببوبما يُصْنَع بُالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل.

---

[٥٧] خرونيه، صفحات من تاريخ مكة، ص ١٦٥– ١٦٦.

[٥٨] الشَّقَفُ، مُحرَّكةً : الخَزَفُ، أو مُكَسَّرُه. القاموس المحيط لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٨)، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص ٨٢٥.

فراكب هذا السبيل راكب خطر ومُعتسِف غَرر، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف وبيتُ الله الآن بأيدي أقوامٍقد اتخذوه معيشةَ حرامٍ، وجعلوه سببًا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حِلٍّ، ومصادرة الحجاج عليها، وضرب الذلة والمسكنة الدّنية عليهم.

تلافاها الله عن قريبٍ بتطيهرٍ يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين؛ بسيوف الموحدين أنصار الدين، وحزبُ الله أُولي الحق والصدق، والذّابين عن حرم الله عز وجل، والغائرين على محارمه، والجادّين في إعلاء كلمته، وإظهار دعوته، ونَصْو ملّته، إنه على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير

وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب؛ لأنهم على جادة واضحة لا لُبْسَ فيها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفِرق ضالة وشِيَع، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها، كما إنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهها إلا عند الموحدين[٥٩] أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة، يَعْشرون[٦٠] تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلةٍ وسبب، ويرتكبون طرائق من الظلم لم يُسْمَع بمثلها؛ اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين، الذي قد ذكرنا سيرته ومناقبه، لو كان له أعوان على الحق» اهـ[٦١].

ولذا كانت الأصوات تتعالى والألسنة تخفق بالتأمين على الدعاء له عندما يأتي ذِكْره أثناء الخطبة في الحرم بعد الخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر، ثم أمير مكة مكثر بن عيسى بن فُلَيْتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسني. فكانت الألسنة تخفق بالتأمين عند ذكر صلاح الدين خاصة.

قال ابن جبير: «وحُقَّ ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم ولما رَفَعه من وظائف المكوس عنهم، وفي هذا التاريخ أُعْلِمنا بأنّ كتابه وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله التوصية بالحاج والتأكيد في مَبَرّتهم وتأنيسهم ورفع أيدي الاعتداء عنهم والإيعاز في ذلك إلى الخُدّام والأتباع والأوزاع. وقال: إنّه إنما نحن وأنت مُتَقَبَّلون في بركة الحاجّ. فتأمّل هذا المنزع الشريف، والمقصد الكريم. وإحسانُ الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده، واعتناؤه الكريم موصولٌ لمن جعل همّه الاعتناء بهم، والله عز وجل كفيلٌ بجزاء المحسنين، إنّه وليّ ذلك لا ربّ سواه»[٦٢].

---

[٥٩] يعني دولة الموحّدين بالمغرب، وقد تكلم عليهم ابن جُبير عقب كلامه هذا.

[٦٠] يعني: يأخذون منهم العشر.

[٦١] رحلة ابن جبير، ص ٥٤ – ٥٦.

[٦٢] رحلة ابن جبير، ص ٧٣– ٧٤.

إلى أن قال ابن جبير: «وفي إثر كل صلاة مغرب يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم، ولها مطلع على أدراج من عود في الجهة التي تقابل باب الصفا، رافعا صوته بالدعاء للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله، ثم للأمير مكثر، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن، ذي المآثر الشهيرة والمناقب الشريفة، فإذا انتهى إلى ذِكْرِه بالدعاء ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين، بألسنةٍ تمدّها القلوب الخالصة والنياب الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خفقًا يذيب القلوب خشوعًا؛ لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس وعباد الله شهدائه في أرضه، ثم يصل ذلك بدعاءٍ لأمراء اليمن من جهة صلاح الدين، ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين، وينزل، هكذا دأبه دائمًا أبدًا»[٦٣].

المطلب الثامن

سبُّ الصحابة رضي الله عنهم

وكان ذلك سنة ٣٩٥هـ وفيها أرسل صاحب مصر الحاكم أبو علي منصور بن نِزَار إلى صاحب مكة أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني، سجلًا يتنقص فيه بعض الصحابة، وجرّح به بعض أزواج النبي ﷺ فأرسلَ به الأميرُ إلى القاضي وأَمَرَهُ بقراءته على الناس، فلما فشا ذلك عند الناس من المجاورين والقاطنين بمكة والمنتجعين وغيرهم من قبائل العرب المجاورة – هذيل ورواحة – زحفوا إلى المسجد غَضَبًا لله تعالى ولنبيِّه ﷺ، ولصحابته رضي الله عنهم، فلما بلغ ذلك القاضي أَخَّر الخروج وتباطأ؛ فطال انتظار الناس له حتى قال قائلٌ: قد صعد المنبر، فرماه الناس بالحجارة، وزحفوا إليه، فلم يجدوا عليه أحدًا، وتكسَّر المنبر فصار رميمًا، وكان يومًا عظيمًا، ومشهدًا مهيبًا، ولم يقدر بعد ذلك أحدٌ أنْ يَطْعَنَ بذلك المذهب»[٦٤].

وقد تزامن حكم العبيدي الحاكم بأمر الله الفاطمي، الخليفة شبه المجنون، مع حكم أبي الفتوح، وقد اختلف الاثنان بسبب هذه الواقعة المذكورة، ونظرًا لما رآه أبو الفتوح من قوة أهل مكة وعزمهم وإصرارهم على منعه من مذهب السوء في سب الصحابة رضي الله عنهم، فقد أعلن أبو الفتوح بعصيان العبيدي، وقام بتنصيب نفسه خليفة، وبايعه على هذا شعب الحجاز حوالي عام (٤٠١ هـ)، وشجعه على هذا ابن أحد الوزراء كان الحاكم العبيدي الفاطمي قد قتل أباه، ورضي زعماء البدو بأبي الفتوح خليفة، قبل أن يقوم الفاطمي بإغراء أحد أقارب أبي الفتوح – وقيل: أخاه – بالاستيلاء على الإمارة في مكة، ليحل محل أبي الفتوح، فعاد أبو الفتوح إلى مكة مرة

---

[٦٣] المصدر السابق، ص ٨٠.

[٦٤] ابن فهد، إتحاف الورى (٤٣١/٢)؛ تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٢)، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، (٧٨/٤، ٧٩).

أخرى، وتخلّى عن طموحه في الخلافة لنفسه، وبدأ يتواصل ثانية ليتصالح مع الخليفة الفاطمي العبيدي[٦٥].

وكان الحاكم العبيدي قد تمادى في غيه، وتطاول في ظلمه، وأتى بعظائم الأمور، وشنائع الأفعال؛ منها: أنه أمر في صدر خلافته بسب الصحابة، رضي الله عنهم، وأن يكتب السّب على حيطان الجوامع والأسواق، وكتب بذلك إلى سائر عماله، في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ولم يقتصر الأمر على كتابه إلى عامل مكة فقط، بل عمَّم ذلك إلى سائر عماله في سائر البقاع التي تحت إمرته.

لكن يظهر أنه قد ضغط ورفض البلاد التي تحت إمرته لهذا المذهب الرديء والقول السيء السقيم؛ يظهر أنه تحت ضغط ردود الفعل الشديدة من الناس قد تراجع.

فقد أمر بعد ذلك بمدة بالكف عن السب، وتأديب من يسبهم، أو يذكرهم بسوء، ثم أمر في سنة تسع وتسعين وثلاثمائة بترك صلاة التراويح، فاجتمع الناس بالجامع العتيق وصلى بهم إمام جميع رمضان، فأخذه وقتله، ولم يصلّ أحدٌ التراويح إلى سنة ثمان وأربعمائة، فرجع عن ذلك، وأمر بإقامتها على العادة[٦٦].

لكن ظل ما حصل في مكة من رفض في مخيلة الناس، لم ينسوه، والعبيديون الفاطميون الرافضة يدينون بالتقية، فيقولون خلاف ما يبطنون، ولم يكن تراجع هذا الحاكم العبيدي عن أفعاله الدنيئة عن علم ودينٍ ورغبة في الإصلاح، بدليل أنه قد عاد وأّلب من يسب الصحابة، بعدما أمر بسبهم، لكنه في الوقت نفسه منع الناس من الاجتماع في صلاة التراويح لسنين طويلة من سنة ٣٩٩ حتى سنة ٤٠٨ ، قرابة عقد كامل لم يصلّ الناس التراويح.

فكأنه خشي غضبة الناس، واستمرارهم وتماديهم في التصدِّي له، والاجتماع على ذلك، فمنعهم من الاجتماع في التراويح هذه السنين الطويلة.

وقد لقي جزاءه حين دخلت سنة إحدى عشرة وأربعمائة وفيها قُتِل هذا الحاكم العبيدي، شَرَّ قتلة، ولعله قد أكلته الذئاب والثعالب، أو نحو هذا؛ لأنه في هذه السنة، ليلة الاثنين لثلاث بقين من شوال، فُقِد الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز العلوي، صاحب مصر بها، ولم يعرف له خبر.

وكان سبب فَقْده أنه خرج يطوف ليلة على رسمه، وأصبح عند قبر الفقاعي، وتوجه إلى شرقي حلوان ومعه ركابيان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وأمر لهم

---

[٦٥] خرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، (١٤٩/١ – ١٥١).

[٦٦] محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، المحقق: محمد مصطفى، نشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، ط(١)، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م، (٢٠٢/١).

بجائزة ثم عاد الركابي الآخر، وذكر أنه خلفه عند العين والمقصبة.

وبقي الناس على رسمهم يخرجون كل يوم يلتمسون رجوعه إلى سلخ شوال، فلما كان ثالث ذي القعدة خرج مظفر الصقلبي، صاحب المظلة وغيره من خواص الحاكم، ومعهم القاضي، فبلغوا سلوان، ودخلوا في الجبل، فبصروا بالحمار الذي كان عليه راكبا، وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما، وعليه سرجه ولجامه، فاتبعوا الأثر، فانتهوا به إلى البركة التي شرقي حلوان، فرأوا ثيابه، وهي سبع قطع صوف، وهي مزررة بحالها، لم تحل وفيها أثر السكاكين، فعادوا ولم يشكوا في قتله.

وقيل: كان سبب قتله أن أهل مصر كانوا يكرهونه لما يظهر منه من سوء أفعاله، فكانوا يكتبون إليه الرقاع فيها سبه، وسب أسلافه، والدعاء عليه، حتى إنهم عملوا من قراطيس صورة امرأة وبيدها رقعة، فلما رآها ظن أنها امرأة تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها، فقرأها، وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة، وذكر حرمه بما يكره، فأمر بطلب المرأة، فقيل إنها من قراطيس، فأمر بإحراق مصر ونهبها، ففعلوا ذلك، وقاتل أهلها أشد قتال، وانضاف إليهم في اليوم الثالث الأتراك والمشارقة، فقويت شوكتهم وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه الصفح ويعتذرون، فلم يقبل، فصاروا إلى التهديد، فلما رأى قوتهم أمر بالكف عنهم، وقد أحرق بعض مصر ونهب بعضها، وتتبع المصريون من أخذ نساءهم وأبناءهم، فابتاعوا ذلك بعد أن فضحوهن، فازداد غيظهم منه وحنقهم عليه.

ثم إنه أوحش أخته، وأرسل إليها مراسلات قبيحة يقول فيها: بلغني أن الرجال يدخلون إليك، وتهددها بالقتل، فأرسلت إلى قائد كبير من قواد الحاكم يقال له ابن دواس، وكان أيضا يخاف الحاكم، تقول له: إنني أريد أن ألقاك فحضرت عنده وقالت له: قد جئت إليك في أمر تحفظ فيه نفسك ونفسي، وأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك، وأنه متى تمكن منك لا يبقي عليك، وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به مما يكرهه المسلمون، ولا يصبرون عليه، وأخاف أن يثوروا به فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة، فأجابها إلى ما تريد، فقالت: إنه يصعد إلى هذا الجبل غدا، وليس معه غلام إلا الركابي وصبي، وينفرد بنفسه، فتقيم رجلين تثق بهما يقتلانه، ويقتلان الصبي، وتقيم ولده بعده، وتكون أنت مدبر الدولة، وأزيد في إقطاعك مائة ألف دينار.

فأقام رجلين، وأعطتهما هي ألف دينار، ومضيا إلى الجبل، وركب الحاكم على عادته، وسار منفردا إليه، فقتلاه، وكان عمره ستا وثلاثين سنة وتسعة أشهر، وولايته خمسا وعشرين سنة وعشرين يوما، وكان جوادا بالمال، سفاكا للدماء، قتل عددا كثيرا من أماثل دولته وغيرهم،

فكانت سيرته عجيبة[٦٧].

أي عجيبة في الظلم وسفك الدماء والظلم وانتهاك الحرمات.

وقد وصف أبو شامة هذا المشهد الرهيب فقال: «وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع والطرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب، ثم أمر بقلع ذلك، وأنا رأيته مقلوعًا في بعض أبواب دمشق في الأسكفة العليا منقورًا في الحجر، ودلني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل ذلك الحجر. وفي أيامه طُفّ بدمشق رجل مغربي وذُودي عليه هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر، ثم ضُربت عنقه، وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء، مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي أحد الصالحين – وكان أذّن ببيت المقدس وقال في آذانه: حي على الفلاح، فأُخِذ وقُطع لسانه – ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابلسي الحافظ: أبو القاسم في تاريخه. وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدّتهم مع قلّة عدتهم، فإنّ عدتهم عدة خلفاء بني أمية أربعة عشر،وأولئك بقوا نيفًا وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مئتي سنة وثمانيًا وستين سنة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم وإبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومحالهم. وقد كشف أيضا حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن أبي نصر الشاشي في كتاب الرد على الباطنية وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده.

قلت[٦٨] ثم إني لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم فأفردت كتابا لذلك سميته: كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله تعالى جمعتُ فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المُصنِّفون وغيرهم. ووقفتُ على كتابٍ كبير صنفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقب بالعزيز ثاني خلفاء مصر، فَبيَّن فيه أصولهم أتم بيانٍ، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبَّع ذِكْر فضائحهم وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلتُ منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق

وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى عليٍّ رضوان الله عليه والتستر بالتشيع؛ قد فعله جماعةُ القرامطة وصاحب الزنج الخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين في الأرض، على ما عرف من سيرهم مَن وقف على أخبار الناس، وكلهم كَذَبة في ذلك، وإنما غرضهم التقرب إلى

---

[٦٧] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (٦٥٨/٧، ٦٥٩).

[٦٨] أبو شامة القائل.

العوام والجهال واستتباعهم لهم واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء. وقد صنف الشريف العابد الدمشقي رحمه الله كتابا في إبطال نَسَبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصَّلَ ذلك تفصيلًا حسنًا، وأطنبَ في ذِكْر أخبار إخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى»[٦٩].

ولسنا نقصد هنا بيان ما كان عليه العبيديون الفاطميون؛ إنما قصدنا الإشارة لما ينطوي عليه تراجعهم عن إعلان السب والتجريح والطعن في الصحابة الكرام رضي الله عنه، وأنّ هذا التراجع الفاطمي العبيدي في مكة وغيرها لم يكن ناتجًا عن عدلٍ وإنصافٍ وبحثٍ وعلمٍ ظهر لهم، إنما كان نتيجة ردة فعل الناس ورفضهم لهذا المذهب الرديء، وخشية هؤلاء العبيديين من تحريك ثائرة الناس ضدهم، فاستمالوا الناس بهذا التراجع المؤقت، من باب التقية لا الحق.

ويدل على هذا أنه لم يتراجع فقط، فلم يصمت بعد هذا التراجع، بل حاول الانتقام مرارًا، وقد ذكرنا آنفًا كيف منع الناس من الاجتماع في صلاة التراويح، كما أنه أرسل من ضرب الحجر الأسود بدبوس إلى آخر أفعاله الدنيئة.

ويصور ابن سعدون – فيما نقله عنه المراكشي – هذا التدافع المستمر بقوله: «ثم ولي الحاكم، فأظهر أكثر مذهبهم، فكان مما أَحْدَث أنه بنى دارًا وجعل لها أبوابًا وأطباقًا، وجعل فيها قيودًا وأغلالًا وسماها جهنم، فمن جنى جناية عنده قال: ادخلوه جهنم.

وأَمر أنْ يُكتب في الشوارع والجوامع بسب الصحابة، أجمعين.

ثم أرسل داعيًا إلى مكة، فلما طلع المنبر وذكر ما ذكر، اقتحم عليه بنو هذيل فقطّعوه قطعة قطعة وكُسر المنبر وفتُّت حتى لم يجمع منه شيئًا.

ثم أرسل رجلًا خراسانيًا من بني عمه، فضرب الحجر الأسود بدبوس، فقتُل في حينه وأخذه الناس قطعة قطعة وأُحرق بالنار.

وأرسل – لعنه الله – إلى مدينة الرسول ﷺ من ينبش القبر المعظم فسمع الناس صائحًا يقول: القبر ينبش! ففتشّه الناس فوجدوه وأصحابه فقتلوهم.

ثم أنه ادّعى الربوبية من دون الله، وجعل داعيًا يدعوا الناس إلى عبادته، وسماه المهدي، فكتب داعيه الكتاب، وكان اسمه حمزة، وذلك في سنة ٤١٠هوقُرئ بحضرة الحاكم – لعنه الله – على أهل مملكته، ذكر فيه –تعالى الله عن إبطال المبطلين علوا كبيرًا!–: الحمد لمولاي الحاكم وحده، باسمك اللهم الحاكم بالحق!. ثم تمادى فقال: توكلت على إلهي أمير المؤمنين، جل ذكره وبه نستعين في جميع الأمور!. ثم طوّل بالكتاب بالتخليط مرة يجعله أمير

---

[٦٩] أبي القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، المحقق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١)، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، (٢/٢٢٠ – ٢٢٤).

المؤمنين ومرة يجعله إله، وقال فيه: (وأمرني بإسقاط ما يلزمكم اعتقاده من الأديان الماضية والشرائع الدارسة)، وذكر أشياء يطول ذكرها. وكانت له راية حمراء تحت قصره فاجتمع إليه خلق نحو خمسة عشر ألف رجل فيما قيل، ثم إنّ رجلا من الترك كاتبه حمزة فأظهر الحاكم أنه أمر يقتله. وكان الحاكم كثير التصرف بالليل إلى جبل المقطم على حمار، فخرج ليلًا فقُتل هو وحماره»[٧٠].

فمن يدّعي الربوبية والإلهية لا يمكن أن يكون قد رجع عن سب الصحابة في مكة وغيرها عن علمٍ أو عدلٍ؛ إنما هي التقية وخشية ردة الفعل وثائرة الناس التي ظهرت واضحة في هتك وقتل أولئك الذين قاموا بهذا الفعل الدنيء نيابة عن هذا العبيدي[٧١].

وقد وضح هذا في قول ابن سعدون: «ثم ولي بعد معد: الملقب بالمستنصر، فمرةً ظهر السب، ومرة يكفّوي سكّن الناس، فإذا مشى في جنوده كان بين يديه الشبابة ومن ينشد الشعر. وذُكر أنّه أرسل من كتب السب في أستار الكعبة في ليلة ظلماء، فأصبح الناس فوجدوه، فضج المسلمون لذلك، وأكثروا البكاء لسب الصحابة. قال ابن سعدون: وعلى هذا بنو أصل مذهبهم، أنهم يُظهرون الدين والخير حتى يتمكّنوا»[٧٢].

وحين شاهد ردة فعل الناس أمر بوقف السب في نفس العام[٧٣]. ولعل هذا المجنون قد موّه على الناس بمثل أمره أنْ لا تباع الملوخّية ولا تُطبخ، ولا يباع السمك الذي بغير قشر ولا يؤكل، ولا يباع الترمس والجرجير، ومن هذه الخرافات وأنظارها[٧٤].

فلعله موّه على الناس بمثل هذه الخرافات ليقول الناس: مجنون، فيُمرِّر السب والطعن في الصحابة، خاصة في بلد الله الحرام مكة المكرمة؛ لأنه إذا فشى وشاع في مكة فسينتقل حتمًا

---

[٧٠] أبي عبد الله محمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س.كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط (٣)، ١٩٨٣م، (٢٨٦/١).

وقد نقله المراكشي كما قال قبل ذلك في كتابه (٢٨١/١): «قال أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي في تأليفه في (تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان من هيجان الفتن وتقلب الأزمان)»، ثم اختصر فصلًا طويلًا هذا جزءٌ منه.

[٧١] وانظر أيضًا: ردة الناس وما وقع في الكرخ. أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة، ط (١)، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م، (٧/١٦).

[٧٢] المصدر السابق، (٢٨٧/١).

[٧٣] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (١٩٩/١، ٢٠٠)؛ أبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: مجموعة من المحققين، عيسى البابي الحلبي، ما بين ١٩٦٠ – ١٩٩٤م، (٢٧٩/٦).

[٧٤] ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (١٩٩/١، ٢٠٠)؛ ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، (٢٧٩/٦).

لبقية البلاد الإسلامية، عندما يأتي الحجاج لأداء مناسك الحج أو العمرة ثم يعودون لبلادهم يحملون هذا الوباء، لكن الله كان لهم بالمرصاد، فوفَّق أهل الإسلام في مكة لصد هذه الردة العقدية.

ثم إن آخر خلفاء العبيديين المسمى بالعاضد كان شديد الرفض، متغاليا في سب الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، وإذا رأى سنِّيا أو سمع به أراق دمه[٧٥].

فانظر إليهم يدينون بالسب، فإذا ثارت ثائرة الناس تظاهروا بغير ذلك وأمروا بوقف السب فترة، ثم يعودون إليه مرة أخرى.

ولذا وصف الذهبي هذا العبيدي الحاكم بالخبيث الماكر، ضمن ما وصفه به[٧٦].

المبحث الثاني

في العادات الدينية المخالفة في الحرم المكي، في الفترة نفسها

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: التغيير في الآذان تبعًا للمذهب العبيدي.

المطلب الثاني: الدعاء والخطبة للخلفاء والأمراء والوزراء وتأثرُّ ذلك بالواقع السياسي.

المطلب الثالث: تزيين الحرم ونصب الإنارة والأعلام ونثر الدنانير على الكعبة.

المطلب الرابع: تعدُّد جماعات الصلوات تبعًا لتعدُّد المذاهب الفقهية.

المطلب الخامس: دخول الحرم بالسلاح.

المطلب الأول

التغيير في الآذان تبعًا للمذهب العبيدي

فقد كان العبيديون حكام مصر آنذاك لما تسلطوا على مكة قد أدخلوا آذانهم، وفيه حي على خير العمل، واستمر الأمر فترة، حتى وقعت ذلة المصريين آنذاك بالقحط المفرط، واشتغالهم بأنفسهم، حتى أكل بعضهم بعضًا، وتشتَّتوا في البلاد، وكاد الخراب أن يستولي على سائر الأقاليم، حتى بيع الكلب بخمسة دنانير، والهرّ بثلاثة دنانير، وبلغ الأردب مائة دينار، فأعاد محمد بن أبي هاشم صاحب مكة آنذاك الخطبةَ العباسية في سنة ٤٦٢ بعد قطعها من الحجاز نحو مائة سنة، وخطب للخليفة القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن عبد القادر أحمد بن إسحاق بن المقتدر العباسي، وللسلطان ألْب أرسلان السلجوقي. وذكر بعضهم: أنه لما افتتح

---

[٧٥] ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، (١٣/٧).

[٧٦] الذهبي، تاريخ الإسلام، (١٧٠/٢٨).

الخطبة العباسية قال: الحمد لله الذي هدى بأهل بيته إلى الرأي المصيب، وعوّض بنيه بلبسه الشباب بعد المشيب، وأمال قلوبنا إلى الطاعة، ومتابعة أهل الجماعة، وترك الآذان بحي على خير العمل[٧٧].

وكان بدء العبيديون هذه العادة في مصر في جمادى الأولى من سنة ٣٥٩، حيث سار جوهر إلى جامع ابن طولون، وأمر المؤذن فأذن بحي على خير العمل، وهو أول ما أذن بمصر ثم أذن بعده في الجامع العتيق[٧٨].

كذا قال ابن الأثير: في جمادى الأولى.

زاد المقريزي: يوم الجمعة لثمانٍ خلون من جمادى الأولى صلى جوهر في جامع ابن طولون، وأذن المؤذنون بحي على خير العمل، وهو أول ما أذن به بمصر[٧٩].

وقال الذهبي وابن تغري بردي: في ربيع الآخر سنة تسع وخمسين أذنوا بمصر بحي على خير العمل [٨٠].

وكان بدء ذلك في يوم الجمعة[٨١]. كذا قال اليافعي.

ووافقه ابن كثير في اليوم وخالفهم في الشهر، فقال ابن كثير: ودخل أبو الحسن جوهر القائد الرومي في جيش كثيف، من جهة المعز الفاطمي إلى ديار مصر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، فلما كان يوم الجمعة خطب للمعز الفاطمي على منابر الديار المصرية وسائر أعمالها، وأمر جوهر المؤذنين بالجامع العتيق وبجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحي على خير العمل، وأن يجهر الأئمة بالبسملة[٨٢].

وقريب من هذه السنة ٣٥٩ جرى بدء الآذان في مكة بهذه الزيادة؛ لما ذكره الفاسي في «العقد الثمين» وابن فهد في «إتحاف الورى» كما أسلفناه هنا من إبطال صاحب مكة للأذان

---

[٧٧] الفاسي، العقد الثمين، (٤٤٠/١، ٤٤١)؛ ابن فهد، إتحاف الورى، (٤٧٢/٢، ٤٧٣).

[٧٨] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (٢٨٠/٧).

[٧٩] تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، (١٢٠/١)، المحقق: د. جمال الدين الشيال، وغيره، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

[٨٠] الذهبي، تاريخ الإسلام، (٥١٧/٨)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (٣٢/٤).

[٨١] أبي محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، (٣١١/٢)،.

[٨٢] ابن كثير، البداية والنهاية، (٣١٧/١٥). واستمر ذلك بالديار المصرية إلى سنة ٥٦٦هـ «وفيها قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر كلها، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس على المنابر». ابن كثير، البداية والنهاية، (٤٤٨/١٦).

بحي على خير العمل في سنة ٤٦٢ وعودة الخطبة العباسية في هذه السنة، وكانت قد تعطلت من الحجاز قبل ذلك بنحو من مائة سنة، يعني أنها كانت قامت للعبيدين مع زيادة الأذان بحي على خير العمل بعد سنة ٣٥٢ إلى سنة ٣٥٩، واستمرت إلى سنة ٤٦٢.

ولما وَرَدَ رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم، ومعه ولده، إلى السلطان ألب أرسلان، يخبره بإقامة الخطبة بمكة للخليفة القائم بأمر الله العباسي وللسلطان ألب أرسلان، وإسقاط خطبة العبيدي، صاحب مصر، وترك الأذان بحي على خير العمل؛ أعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار، وخلَعا نفيسة، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار[٨٣].

وكان هذا الأذان العبيدي قد عاد لمكة في وقت لاحق قبل أن يوقفه «سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو السطان صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ وذلك في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة؛ لأنه في هذه السنة قدم مكة، ومنع من الأذان في الحرم بحي على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يفسدون، وهرب منه أمير مكة إلى قلعته بأبي قبيس، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحاج، وضرب الدنانير والدراهم فيها اسم أخيه السلطان صلاح الدين»[٨٤].

المطلب الثاني

الدعاء والخطبة للخلفاء والأمراء والوزراء وتأثُّر ذلك بالواقع السياسي

كان الدعاء والخطبة للخلفاء والأمراء والوزراء عادة سائدة في الحرم في هذه الحقبة الزمنية، وربما جرى فرضها بالحروب والتغلُّب.

ففي سنة ٣٢٠ « حجّ من أهل بلاد المغرب واليمن، ودُعِي للمقتدر على منبر مدينة الرسول ﷺ لمَّا لَمْ ينتظم الدعاء للقاهر؛ لاضطراب القوافل لقُرْب القرمطي منهم[٨٥]، ودُعِي للقاهر بمكة في اليوم السابع من ذي الحجة لتتم الصلاة والحج»[٨٦].

وفي سنة ٣٢٩: «خُطِب للمتقي بن المقتدر بعد موت أخيه الراضي»[٨٧].

وفي سنة ٣٣٣: «خُطِب للمستكفي بن المكتفي بن المعتضد»[٨٨]. وفي سنة ٣٣٤

---

[٨٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (٢١٨/٨).

[٨٤] الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، (٢٣٧/٢).

[٨٥] استطرد صاحب الإتحاف، وغيره في بيان ما فعله القرامطة ودخولهم الحرم واقتلاعهم الحجر الأسود وأخذوه معهم إلى أن أعادوه سنة ٣٣٤، وكانوا قد سرقوا الحرم ونهبوا ما فيه، كما نهبوا الحجاج وقتلوهم في حرم الله، وتوقف الحج في عدد من البلدان قرابة عشرة أعوام خوفاً من القرامطة، فلعنة الله عليهم. انظر: ابن فهد، إتحاف الورى (٣٨٧/٢، ٣٩٤، ٣٩٥).

[٨٦] المصدر السابق، (٣٨٣/٢).

[٨٧] المصدر السابق، (٣٨٩/٢).

« خُطِب للمطيع بن المقتدر بمكة، وبعده لمعز الدولة بن بويه»[٨٩]. وقد جرت فتنة وقتال بين أمير الركب العراقي وأمير الركب المصري سنة ٣٤٢ بسبب الخطبة لمعز الدولة بن بويه بمكة[٩٠]. وتجدد القتال سنة ٣٤٤ بين الفريقين، وكان الغلب لأصحاب معز الدولة؛ فخُطِب بمكة والحجاز لركن الدولة ومعز الدولة، ولولده عز الدولة بَخْتَيار، وبعدهم لابن طغج، ومنع أصحابُ معز الدولة أصحابَ الإخشيد من الصلاة بمِنًى والخطبة، ومنع أصحابُ الإخشيد أصحابَ معز الدولة الدخولَ إلى مكة والطواف[٩١]. ثم اتفق الطرفان سنة ٣٤٨ على إفراد الخليفة بالخطبة وترك ابن بويه وابن الإخشيد، وحصلت خديعة وخُطِب لابن بويه[٩٢]. وفي سنة ٣٥٦ « خُطِب بمكة لَبَخْتَيار بعد موت أبيه معز الدولة وولايته بغداد، والخليفة يومئذٍ مطيع»[٩٣].

ويلاحظ من هذا السرد مدى الانحراف بالخطبة، من جهة، ومن جهة أخرى عدم الاقتصار في الخطبة على الدعاء للخلفاء، بل تجاوز ذلك في أحايين كثيرة للخطبة للوزراء والأمراء، كما هو واضحٌ في السرد السابق.

ثم شهدت سنة ٣٥٨ تطورًا مهمًا، إذْ « فيها خُطِب بالحرمين واليمن للمعز أبي تميم مَعَدّ بن المنصور العبيدي[٩٤] صاحب مصر، وبطلبت الخطبة لبني العباس، وفرَّق فيها قائدُ حج مصر أموالًا عظيمة في الحرمين»[٩٥]. ولاشك أنه قد أنفقها لأغراض سياسية تتمثل في استمالة المكيين لصالحه، وتثبيت الخطبة في الحرمين للفاطميين دون العباسيين. وفي هذه السنة نفسها تم قطع الخطبة لبني بويه بمكة، وظهرت الخطبة في الموسم للمطيع بالله وللحسين القرمطي بالإمارة[٩٦]. واستمر ذلك في سنة ٣٥٩ أيضًا لكن خُطِعَت الخطبة للمعز لدين الله العلوي في المدينة بدلًا من مكة[٩٧].

وقد ظهر أثر هذا الدخول الفاطمي للحرم المكي في سنة ٣٦١ حين جاء بنو الحسين أهل المدينة مع أمراء المعز العبيدين، ليقيموا له الخطبة بمكة، فجاء القرامطة لنصرة بني حسن

---

[٨٨] المصدر السابق، (٣٩١/٢).

[٨٩] المصدر السابق، (٣٩٢/٢).

[٩٠] المصدر السابق، (٣٩٨/٢).

[٩١] المصدر السابق، (٣٩٨/٢، ٣٩٩).

[٩٢] المصدر السابق، (٤٠٠/٢).

[٩٣] المصدر السابق، (٤٠٠/٢).

[٩٤] وهذه أول مرة تظهر فيها الخطبة لأحد العبيديين الفاطميين في الحرم.

[٩٥] ابن فهد، إتحاف الورى، (٤٠٦/٢).

[٩٦] المصدر السابق، (٤٠٦/٢).

[٩٧] المصدر السابق، (٤٠٧/٢).

أهل مكة الذين رفضوا ذلك، فتحارب الفريقان وانهزم أهلُ المدينة[٩٨]. فسلط المعز بني هلال وغيرهم علىالركب العراقي فقتلوا منهم خلقً ا كثيرًا وضاق عليهم الوقت وبطل الحاج في سنة ٣٦٣[٩٩]، قبل أن يأتي عسكر عضد الدولة ويطردوا أصحاب المعز ويعيدوا الخطبة للمطيع بالله مرة أخرى[١٠٠]. وهكذا استمتو الاضطرابات في مكة، يـُخطب للمتغلّـب من الفريقين، وكانت الجيوش تأتي وتفرض الخطبة لهذا المتغلّب أو ذاك، كما حصل سنة ٣٦٦[١٠١].

وبلغ الأمر ذروته من الانحراف في سنة ٣٩٦ و«فيها أُمِر الناس في الحرمين بالقيام عند نِكْر الحاكم صاحب مصر في الخطبة؛ لأنَّ ذلك عادتهم بمصر والشام؛ بل كانوا إذا نُكِر قاموا وسجدوا في السوق ومواضع الاجتماع»[١٠٢] . فعقَّب الذهبيُّ على ذلك بقوله: «فإنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد كان هؤلاء العبيديون شرًّا على الإسلام وأهله من التتر»[١٠٣]. وقال ابن كثير: «وفيها كانت الخطبة بالحرمين للحاكم العبيدي، وتجدد في حال الخطبة أنه إذا ذكر الخطيب الحاكم يقوم الناس كلهم، وكذلك فعلوا بديار مصر مع زيادة السجود، وكانوا يسجدون عند ذكره ؛ يسجد من هو في الصلاة، ومن هو في الأسواق أيضا يسجدون لسجودهم، لعنهم الله سبحانه وتعالى»[١٠٤].

ومن هنا ارتبطت الخطبة بالعلاقة سلًبا وإيجاًبا، كما حصل في سنة ٤٥٨ حيثُ «قطع المستنصر الميرة عن مكةَ ؛ فقطع الأمير محمد بن أبي هاشم خطبة القائم العباسي»[١٠٥].

المطلب الثالث

تزيين الحرم ونصب الإنارة والأعلام ونثر الدنانير على الكعبة

وقد حصل هذا في سنة ٣٠٦ «وفيها غـّير القاضي محمد بن موسى الطاقات التي كانت في جدر المسجد الكبير[١٠٦] حين عمرت زيادة دار الندوة، وجعل ذلك بأساطين حجارة منورة، عليها ملابن ساج بطاقات معقودة بالآجر الأبيض والجصّ، وصله بالمسجد الكبير وصولًا

---

[٩٨] المصدر السابق، (٤٠٨/٢).

[٩٩] المصدر السابق، (٤١٠/٢).

[١٠٠] المصدر السابق، (٤١٢/٢).

[١٠١] المصدر السابق، (٤١٣/٢).

[١٠٢] ابن الجوزي، المنتظم، (٤٩/١٥)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (٦٨٩/٨)؛ ابن فهد، إتحاف الورى، (٤٣٢/٢).

[١٠٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، (٦٨٩/٨).

[١٠٤] ابن كثير، البداية والنهاية، (٥١٠/١٥).

[١٠٥] الفاسي، العقد الثمين، (٤٤١/١)؛ ابن فهد، إتحاف الورى، (٤٧٠/٢).

[١٠٦] يعني: الحرم.

أحسن من العمل الأول؛ حتى صار من في دار الندوة من صَلٍّ أو غيره يستقبل الكعبة فيراها كلها»[١٠٧].

ولما مات المقتدر الخليفة العباسي في سنة ٣١٠ «أمرت أم المقتدر العباسي غلامها لؤلؤًا أَنْ يُلْبِس جميع الأسطوانة الأولى التي تلي باب الكعبة الذهبَ؛ لأنّ ثُلثها كان مُلْبَسا صفائح الذهب وبقيتها مموَّهًا»[١٠٨].

وفي سنة ٣٥٩ «عُلِّقَ خارج البيت قناديل و صلتْ من قِبَلِ المطيع لله، كان واحدٌ منها ذهبًا، وزنه ستمائة مثقال، والباقي فضة، عُلِّقت خمسة أيام حتى رآها الناس، ثم أُخِذَت البيت»[١٠٩].

وفي هذه السنة ٣٥٩ نُصِبت الأعلام الجدد في الحرم وعليها اسم الخليفة[١١٠].

وفي سنة ٣٦٦ حجَّت جميلة بنت الملك ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل، وكان معها أخواها إبراهيم، وهبة الله، وكانت حجة يُضْرَب بها المثل في التجمُّل وأفعال الخير، وكان معها أربعمائة محمل، ولم يُرَ في أيها هي؟ لكونهنّ كلهنُ على لون واحدٍ في الحُسن والزينة يشتبهن، وأظهرتْ من المحاسن والشرف، ومن المكارم وإقامة المروءة ما لا يُحْكَى مثلُه لملك أو ملكة، وأفردتْ للرجالة والمنقطعين ثلاثمائة جمل، وقيل: خمسمائة، ونثرتْ على الكعبة حين شاهدتها – وقيل: لما دخلتها – عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها وما يناسب هذا، وأعتقت ثلاثمائة عبد، وثلاثمائة أَمة، وسَقَتْ جميع أهل الموسم جميع أيام التشريق السويق بالسكر الطبرزد والثلج مبرّد، وأعطت المجاورين عشرين ألف دينار، وكست المجاورين بالحرمين الشريفين، وأنفقت الأموال الجزيلة ما لا يوصف بعضه عن بنات الخلفاء ونساء الملوك، وأغنت الفقراء والمجاورين بالصلات الجزيلة، وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب، وقُتِل أخوها في الطريق فتصدَّقت بدمه[١١١]. وهي أول من استّت محامل البقولات مزروعة على أظهر الجمال مع عدّة من أصناف الرياحين[١١٢].

---

[١٠٧] ابن فهد، إتحاف الورى، (٣٦٦/٢).

[١٠٨] المصدر السابق (٣٦٨/٢).

[١٠٩] المصدر السابق (٤٠٧/٢).

[١١٠] المصدر السابق (٤٠٧/٢).

[١١١] ابن الجوزي، المنتظم، (٢٤٨/١٤)؛ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.، (١٢٣/٢)؛ مرآة الجنان (٢٨٩/٢)؛ الفاسي، شفاء الغرام، (٢٦٦/٢)؛ ابن فهد، إتحاف الورى، (٤١٤/٢).

[١١٢] ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، (٣٠٥/٩).

المطلب الرابع

تعدُّد جماعات الصلوات تبعًا لتعدُّد المذاهب الفقهية

وهذا مشهدٌ يدمي القلب، ويُبكي العين، حين تجد المسلم ينصاع طواعية لمذهب إمامٍ من المسلمين، فيصلي خلف إمام مذهبه، ولا ينصاع لإمام المسلمين جميعًا في ضرورة الحرص على وحدة صف المسلمين، واجتماع كلمتهم.

وكانت أُبهة المحراب الخاص بالمذهب على حسب عدد متّبعيه، فتفاخر الناس في ذلك تفاخرًا عجيبًا، وابتدعوا ما لم يأذن به الله.

وقد شاهد ابن جبير هذه الصورة المؤلمة، ووصفها بقوله: «وللحرم أربعة أئمة سُنّية، وأمامٌ خامسٌ لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان: حي على خير العمل، إثر قول المؤذن: حي على الفلاح، وهم روافض سبّابون[١١٣]، والله من وراء حسابهم وجزائهم ولا يُجَمِّعون[١١٤] مع الناس؛ إنما يصلون ظهرًا أربعًا، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

فأول الأئمة السنية الشافعي رحمه الله، وإنما قدّمنا ذِكْره لأنّه المقدم من الإمام العباسي، وهو أول من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم ﷺ وعلى نبينا الكريم.

إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها: يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة، ثم يقيم مؤذنوا سائر الأئمة، وربما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهوٌ وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، أو الحنفي،أو سلّم أحدهم بغير سلام إمامه.

فترى كل أُذُنٍ مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه، مخافة السهو.

ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس.

ثم المالكي رحمه الله، وهو يصلي قبالة الركن اليماني، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها.

ثم الحنفي رحمه الله، وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له، وهو أعظم الأئمة أبهة، وأفخرهم آلة، من الشمع وسواها، بسبب أنّ الدولة الأعجمية كلها على مذهبه، فالاحتفال له كثير،وصلاته آخرًا.

ثم الحنبلي رحمه الله، وصلاته مع صلاة المالكي في حينٍ واحد، وموضع صلاته يقابل

---

[١١٣] يعني: يسبون الصحابة رضي الله عنهم.

[١١٤] يعني: لا يصلون الجمعة.

ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ويصلي الظهر والعصر قريبًا من الحنفي في البلاط الأخذ من الغرب إلى الشمال، والحنفي يصليهما في البلاط الأخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه، ولا حطيم له.

وللشافعي بإزاء المقام حطيم حفيل.

وصفة الحطيم خشبتان موصولٌ بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة، قد عقدت هذه الخُشُب على رجلين من الجصّ غير بائنة الارتفاع، واعترض في أعلى الخشب خشبة مسمرة فيها، قد نزلت منها خطاطيف حديد، فيها قناديل معلقة من الزجاج، وربما وُصِل بالخشبة المعترضة العليا شباكٌ مُشْرَجبٌ[١١٥] بطول الخشبة.

وللحنفي بين الرجلين الجصيتين المنعقدتين على الخشب محراب يصلي فيه.

وللحنبلي حطيم معطل، هو قريب من حطيم الحنفي، وهو منسوب لرامشت أحد الأعاجم ذوي الثراء، وكانت له في الحرم آثار كريمة من النفقات رحمه الله، ويقابل الحجر حطيم معطل أيطًا نسب للوزير المقدّم بهذا اللفظ المجهول[١١٦].

ويطيف بهذه المواضع كلها دائر البيت العتيقوعلى بُعْدٍ منه يسيرًا مشاعيل توُقد في صحافٍ حديد، فوق خُشُبٍ مركوزة، فيقّد الحرم الشريف كله نورًا، ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة في محاريبهم.

والمالكي أقلهم شمعًا وأضعفهم حالًا؛ لأنّ مذهبه في هذه البلاد غريب، والجمهور على مذهب الشافعي، وعليه علماء البلاد وفقهاؤها إلا الإسكندرية وأكثر أهلها مالكيون وبها الفقيه ابن عوف وهو شيخٌ كبير من أهل العلم بقية الأئمة المالكية»[١١٧].

وقد وصلت هذه الجماعات إلى سبع جماعات أو ثمانٍ[١١٨].

---

[١١٥] يعني: طويل. انظر: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ، (١٩٩/٦)؛ أبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي، الغريب المصنف، المحقق: صفوان عدنان داوودي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٤هـ – ١٤١٧هـ، (٣٣١/١)؛ أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، غريب الحديث، المحقق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط (١)، ١٤٠٥هـ، (٥٨١/٢).

[١١٦] يعنيلم يُذكر فيه اسم هذا الوزير، إنما يُذكر بصفته فقط دون اسمه.

[١١٧] رحلة ابن جبير، ص ٧٨ – ٧٩.

[١١٨] وسيأتي ذلك في الكلام على ليلة النصف من شعبان.

المطلب الخامس

دخول الحرم بالسلاح

والطواف وسط المواكب في مستهلّ كلّ هلالٍ

وقد اعتاد الأمراء الأشراف دخول الحرم في كل شهر محاطًا بحملة الرماح، مع أنه لا يصح له ذلك شرعًا، فالحرم أمن وأمان لا يدخله أحدٌ بسلاحٍ، فإن اضطر لذلك أخفض نصل رمحه، لكن لم يلتزم هؤلاء بهذا الهدي الشرعي، فدخلوا الحرم بالسلاح، وطافوا فيه تحرسهم حراسهم برماحهم(١١٩).

ووصف ابن جبير مشاهداته لهذا الطواف الذي قام به أمير مكة حينئذ، فقال ابن جبير: «وليلة أهل هلال الشهر المذكور، وهو جمادى الأولى، بَكَّر أمير مكة مكثر المذكور في صبيحتها إلى الحرم الكريم، مع طلوع الشمس، وقواده يحفون به، والقراء يقرأون أمامه، فدخل على باب النبي ﷺ، ورجاله السودان الذين يعرفونهم بالحرابة يطوفون أمامه، وبأيديهم الحراب، وهو في هيئة اختصار، عليه السكينة والوقار، وسَمْت سلفه الكريم رضى الله عنهم، لابسًا ثوب بياض،متقلّدًا سيفًا مختصرًا متعممًا بكرزية صوف بيضاء رقيقة، فلما انتهى بإزاء المقام الكريم وقف ويُسط له وطاء كتان فصلى ركعتين، ثم تقدم إلى الحجر الأسود فقبله، وشرع في الطواف، وقد علا في قبة زمزم صبي هو أخو المؤذن الزمزمي هو أول المؤذنين أذانا، به يقتدون وله يتبعون، وقد لبس أفخر ثيابه وتعّمم، فعندما يكمل الأمير شوطًا واحدًا وبقرب من الحجر يندفع الصبي في أعلى القبة رافعًا صوته بالدعاء، ويستفتحه بصبّح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة، ويصل ذلك بتهنئة الشهر بكلام مسجوع مطبوع حفيف الدعاء والثناء، ثم يختم ذلك بثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم وذِكْر سابقة النبوة رضى الله عنها، ثم يسكت، فإذا أظل من الركن اليماني يريد الحجر اندفع بدعاء آخر على ذلك الأسلوب، ووصله بأبيات من الشعر غير الأبيات الأخر في ذلك المعنى بعينه، كأنها منتزعة من قصائد مُدح بها، هكذا في السبعة الأشواط إلى أن يفرغ منها، والقراء في أثناء طوافه أمامه، فينتظم من هذه الحال والأبهة وحسن صوت ذلك الداعي على صغره – لأنه ابن إحدى عشرة سنة أو نحوها – وحُسْن الكلام الذي يورده نثرًا ونظمًا، وأصوات القراء وعلوها بكتاب الله عز وجل؛ مجموعٌ يحرك النفوس ويُشجيها، ويَسْتوفِك العيون ويُبكيها، تذكّرًا لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا. فإذا فرغ من الطواف ركع عند الملتزَم ركعتين، ثم جاء وركع خلف المقام أيضًا،ثم ولّى منصرفًا وحَلْبتُه تحفّ به، ولا يظهر في الحرم إلّا لمستهلّ هلالٍ آخر، هكذا

---

(١١٩) خرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، (١٦٧/١).

دائمًا» اهـ[١٢٠].

وقد بقي ابن جبير بمكة إلى أن استهلّ هلال جمادى الآخرة ليلة الأربعاء، وهو الحادي والعشرون من شهر شِتنْبر العجميّ، وفي صبيحة الليلة المذكورة وافى الأمير مُكثر بأتباعه وأشياعه على العادة السالفة في الشهر الأول وعلى الرسم المذكور أيضًا[١٢١].

وأعاد ابن جبير تسجيل هذا الحدث نفسه وبنفس الرسم المذكور، لكن في استهلال شهر شعبان المكرم أيضًا[١٢٢].

كما أعاد الإشارة إليه في مستهل شهر رمضان[١٢٣].

النتائج والتوصيات

وبعد:

فإني أحمد الله عز وجل على تمام هذا البحث، وأرى أن واجبًا عليَّ في نهايته أن أضع

---

[١٢٠] رحلة ابن جبير، ص ٧٤، ٧٥.

[١٢١] المصدر السابق، ص ١٠١.

[١٢٢] المصدر السابق، ص ١١٧.

[١٢٣] المصدر السابق، ص ١٢١.

بعض النتائج والتوصيات المهمة للباحثين في التاريخ عامة، وفي تاريخ مكة المكرمة خاصة:

أولًا: عدم الاقتصار في فهم الأحداث التاريخية على الإقليم الجغرافي، خاصة في تاريخ مكة المكرمة قلب العالم الإسلامي، وحاضرته التي تؤثّر في مجرياته، وتتأثر به كذلك.

ثانيًا: وجود بعض الأخطاء والسلبيات التي وقعت من المكّيين، والمجاورين، التي لا سند لها في الشرع، مثل التبرُّك أو التوسل بآثار الأنبياء أو الصحابة، أو ما يخص البيت الحرام.

ثالثًا: عدم إغفال تأثير الأحداث التاريخية على الواقع الديني، وقد رأينا تقلّبات الأمر في مكة بين الدعاء في الخطبة للخليفة العباسي، ثم الفاطمي، ثم العباسي، إلخ. ويقال ذلك أيضًا في زيادة حي على خير العمل في الأذان وتركها.

رابعًا: احتواء كتب التاريخ، بل والرحلات وغيرها على ما يمكن من خلاله أن نجمع تصورًا شاملًا، وشافيًا عن مناحي الحياة أو بعضها، في عصور الأمة الغابرة، وشتى بقاعها، مهما كانت، وعدم اقتصار كتب التاريخ على السرد التاريخي فقط.

خامسًا: ظهر لنا من خلال العرض السابق خطورة الرافضة على الأمة الإسلامية، وكيف لعبوا دورا كبيرًا في تأخُّرها، بل وإسالة دماء نقية لحجاج بيت الله الحرام، وفرض المكوس عليهم في فترات عديدة.

سادسًا: ظهر لنا أيضًا مدى أهمية صلاح الحاكم، وأثر ذلك في صلاح الدين والدنيا للرعية، وقد بدا هذا واضحًا من خلال فساد الحاكم الفاطمي وأفعاله القبيحة.

سابعًا: أهمية الحسبة والوعي الجماعي في الأمة ودوره في التصدِّي للبدع والخرافات، وقد بدا هذا واضحًا في قضية سب الصحابة التي فرضها الحاكم الفاطمي فتصدَّى لها الناس وأجبروه على وقفها ومعاقبة من يسبهم رضي الله عنهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية:

إتحاف الورى بأخبار أم القرى، للنجم عمر بن فهد، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، بمكة المكرمة، ط (٣)، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، المقريزي، المحقق: د. جمال الدين الشيال، وغيره، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

الأحكام السلطانية، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، الشهير بالماوردي، دار الحديث، القاهرة.

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية.

اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط (٧)، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

بدائع الزهور في وقائع الدهور، لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي، المحقق: محمد مصطفى، نشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، ط (١)، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م

البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة، ط (١)، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لأبي عبد الله محمد بن محمد ابن عذاري المراكشي، تحقيق ومراجعة: ج. س.كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط (٣)، ١٩٨٣م.

التاريخ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط (٢)، ١٣٨٧هـ.

التاريخ، لأبي عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، المحقق: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٢)، ١٣٩٧هـ.

تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، لأبي البقاء، بهاء الدين محمد بن أحمد بن الضياء محمد القرشي العمري المكي الحنفي، المعروف بابن الضياء، المحقق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (٢)، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن

محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ.

التوسل أنواعه وأحكامه، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، المحقق: محمد عيد العباسي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط (١)، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لعمر بن فهد الهاشمي المكي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة، مكة المكرمة، ط (١)، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، د. أيمن فؤاد سيد، ضمن سلسلة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م.

رحلة ابن جبير، لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير، دار صادر، بيروت.

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لأبي القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، المحقق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١)، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لأبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي، المكي الحسني الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

صفحات من تاريخ مكة المكرمة، تأليف ك: سنوك هورخرونيه، نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، دار الملك عبد العزيز، بمناسبة صدور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

العبر في خبر من غبر، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لتقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، تحقيق: فؤاد سيد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٢)، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

غريب الحديث، لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، المحقق: د.سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط (١)، ١٤٠٥هـ.

غريب الحديث، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط (١)، ١٣٩٧هـ.

الغريب المصنف، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي، المحقق: صفوان عدنان

داوودي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٤هـ – ١٤١٧هـ.

القاموس المحيط، لأبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٨)، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (١)، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

كنز الدرر وجامع الغرر، لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق: مجموعة من المحققين، عيسى البابي الحلبي، ما بين ١٩٦٠ – ١٩٩٤م.

لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، بتحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، ط دار صادر بيروت، ٢٠٠٠م.

مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: مرزوق علي إبراهيم، دار الراية، ط (١)، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

المحبر لمحمد بن حبيب، تحقيق: إيلزة ليختن، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لأبي محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

المنتظم، لابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عطا، دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

الموطأ، للإمام مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية، أبو ظبي، الإمارات، ط (١)، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، لأبي الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي، السمهودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١)، ١٤١٩هـ.